

دكتور شوقي ضيف

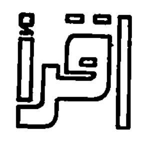
معي ٢

ذِكرياتٌ ومُشاهداتٌ

٤٠٥٨٩١/٠٢



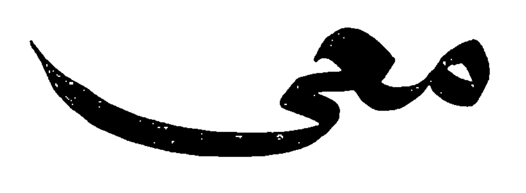
م
١٠٠



[٥٣٩]



دكتور شوقي ضيف



٢

ذِكْرَياتٌ وَمُشَاهَدَاتٌ



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

١

عُيِّن صاحبى - بعد حصوله على درجة الدكتوراه - مدرسا بقسم اللغة العربية فى آداب جامعة القاهرة سنة ١٩٤٢ وظل طوال نهوضه بالتدريس فى قسمه - يشعر بصلة صداقة وثيقة منعقدة بينه وبين تلاميذه أو طلابه، وطالما اعتدَّ بهذه الصداقة وعدَّها نعمة كبيرة من نعم الله عليه، وهى نعمة يمنّ الله بها على المدرسين الجامعيين دائما، إذ تجعلهم - مهما تكبَّدوا فى دروسهم وتدريسهم من عناء ومشقة - يحسون براحة ومتعة فى أدائهم لعملهم، معتقدين بينهم وبين أنفسهم - أن بين تلاميذهم مَنْ يقدرونهم ويحفظون لهم صنيعهم، بل من يودونهم ويجلّونهم نفس الإجلال والمودة اللذين ينعقدان بين الآباء والأبناء.

وربما كان ذلك أكبر جزاء معنوى يكافأ به مدرس الجامعة،

إذ تتوثق الصداقة بينه وبين نفر من تلاميذه، وكان صاحبى ينوه دائما بالصداقة، ويقول إنها تتفوق على جميع الخصال الإنسانية حتى على خصلة الحب التى طالما تغنى بها الشعراء، محتجا لقوله بأن الحب يربط بين اثنين فقط ولا ثالث، ومن شأنه أن يقيد كلا منهما بصاحبه وأن يستغرقه فى خواطره، بحيث لا يفكر فى أحد سوى من أحبه، فتفكيره منحصر فيه، وهو كل متاعه ونعيمه فى دنياه، وكأنما ليس للحب إلا باب واحد يفتح لمن آثره بحبه، ويغلق من ورائه إلى الأبد. أما الصداقة فتفتح الأبواب على مصاريعها لاستقبال غير واحد، وبعبارة أخرى لانعقاد الأواصر بين صديق ومجموعة من الأصدقاء. والحب بذلك أنانى مسرف فى أنانيته، والمحب كأنه معصوب العينين إذ لا يبصر فى الدنيا سوى من أحبه، وإنه ليملؤها عليه من جميع أقطارها بخلاف الصداقة فإنها لا تعرف الأنانية ولا الأثرة ولا الاقتصار على فرد واحد، إذ يستطيع الصديق أن يضم لصداقته فئة قليلة أو كثيرة من الأصدقاء، والصداقة بذلك أرحب من الحب وأوسع آفاقا كالشجرة الطيبة لا تزال تمد فروعها وأغصانها يمينًا ويسارًا فيستظل بها كثيرون ويطمئنون عندها ويستريحون. والصداقة

لا تمنح الصديق الراحة والطمأنينة فى الحياة فحسب، بل إنها كثيرا ما تساعد على تحمل مشاق الحياة وصعوباتها لا بالتسرية وحدها، بل أيضا بمدِّ يَدِ العون. ومعروف أن الإنسان يلقى فى اجتيازه لمرحلة الحياة الطويلة عقاب وصعاب شتى، وليس سوى الصديق الذى يعينه فى اجتيازها، على الأقل بالنصيحة وشد الأزر.

ولم يكن صاحبى ينعم بصداقة تلاميذه فحسب، بل كان ينعم أيضا بصداقة أساتذته، إذ طالما أسبغوا عليه صداقتهم، وفى مقدمتهم طه حسين، وكانت فيه خصلة كريمة، هى الترحيب دائما بتلاميذه حين يزورونه فى منزله، وكان إذا رأى فى أحدهم - ممن يعدون معه رسائلهم العلمية - استعدادا وقدرة على متابعة البحث والنفوذ إلى بعض الآراء الطريفة شجعه وأطراه لزملائه وأساتذته. وكان ذلك يدفع تلاميذه إلى مضاعفة جهدهم ودأبهم فى البحث. وهو جانب مهم فى الأساتذة الجامعيين المرموقين الذين يشرفون على طلاب الدراسات العليا، إذ واجبهم أن يقرِّبوا منهم من يعملون بإشرافهم فى بحوثهم، وأن يملئوهم ثقة واعتدادا بأنفسهم وحماسة متقدة للنهوض بأعمالهم مطرين لها إذا استحقت

الإطراء. ومن المؤكد أنه حين يزرى أستاذ جامعى على عمل طالب يشرف عليه أو على بعض فصوله دون أخذه بالرفق وبيانه له - بدقة - ما ينبغى أن يسلكه من نهج محكم فإنه يكون حينئذ أداة تعطيل له دون المسيرة السديدة فى بحثه، بل قد يحطمه تحطيما. وما أشبه الشباب الجامعى فى بدء عنايتهم ببحوث الدرجات الجامعية العليا بالأزهار فى كمامها الغضة، وكما أن الأزهار تحتاج إلى ندى السَّحَر لتتفتح فى كمامها ولتستتم أريجها كذلك شباب البحوث الجامعية العلمية فى حاجة إلى إطراء أساتذتهم وتشجيعهم، حتى تتفتح ملكاتهم العقلية، وحتى يقبلوا على البحث بِنَهَم، بل حتى ينقضّوا على بحوثهم انقضاضا نافذين إلى نتائج علمية ذات قيمة.

وكان صاحبى - حينئذ - كثير اللقاء بأستاذه طه حسين، وتصادف أن سأله فى أحد لقاءاته عن أحد زملائه ممن تخرجوا فى قسم اللغة العربية ولم يكن من حظهم أن يعينوا فيه، ما رأيك هل ترى فلانا جديرا بأن يعيَّن معيدا فى القسم؟ وكان صاحبى يعرف عنه الجد فى الدراسة فأثنى عليه، وبالغ فى الثناء، وفوجىء صاحبى بطه حسين يهز رأسه ويضرب كفا بكف ويغرق فى الضحك على عادته حين يستمع إلى كلام أو

إلى رأى لا يعجبه، وما لبث أن قال لصاحبى: أنا أخالفك الرأى فى زميلك، وقد عرفت الآن أنه لا علم لك بالرجال. ويبدو أنه كان قد سأله عن صاحبى كزميل له فى حديثٍ دار بينهما، ولم يذكره سامحه الله بخير، ووجم صاحبى وكفَّ عن الكلام وعاد طه حسين يتحدث معه فى بعض شئون الأدب.

وظلت معرفته بالناس توسم بهذا الوصف الذى وصفه به أستاذه طه حسين فى مطالع حياته الجامعية، إذ قلما يتبين حقائقهم وضمائرهم، وكأنما لا تعنيه هذه الضمائر والحقائق فى شىء، وكثيرا ما ندم لعقده صداقات بينه وبين من لا يعرفهم حق المعرفة من الأقرباء والبعداء، إذ ظل من أهم ما يميزه حسن ظنه بالناس. وقد يكون من الخير التحفظ فى عقد الصداقة، حتى لا يتورط شخص فى صداقة كاذبة لمغرض يطلب بصداقته مأربا، حتى إذا تحقق المأرب انمحت الصداقة كأنها لم تكن شيئا مذكورا، وهى - فى واقع الأمر - لم توجد إلا من طرف واحد، أما الطرف الثانى فكان يتظاهر بها رياء وخداعا لغرض فى نفسه. ولعل أسلافنا - لذلك - قالوا من قديم: احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة يريدون - على الأقل - مثل هذا الصديق الكاذب أو الدَّعِىّ، فإنه إذا

عرف مداخلك ومخارجك وانكشفت له عيوبك - ولكل شخص عيوبه - أذاعها - أو أذاع بعضها فى الناس - وربما استغلّها يوما ضدك فأساء إليك إساءة شديدة. أما العدو فإنك - بطبيعتك تحذره، وأنت لذلك بمأمن منه وإنما الخطر كل الخطر فى الصديق غير المخلص الذى تتخِذه - بسلامة نيتك - خِدْنًا وصديقا، فإنك إذا أطلعته على أحوالك وأسرارك ربما ضَرَّك - من حيث لا تحتسب - ضررا بليغا. وغريب أمر الناس، منهم من يطلب صداقتك، فإذا أصبحت له صديقا عدَّ ذلك منك مكرمة كبيرة، وعاش حفيًّا بك وفيًّا لك، ومنهم من يطلب صداقتك مستخدما كل وسيلة من تحية طيبة ومن ابتسامة باشة ومن كلمات وُدٍّ معسولة، حتى إذا وقعت فى شباكه، واتخذته صديقا ودارت بك وبه الأيام، وواتته الفرصة فتمكن منك أخذت عقاربه تلدغك لدغات متصلة أو متقطعة.

وفى السنة الدراسية التالية لتعيين صاحبى معيدا فى قسمه حمل إليه أستاذه طه حسين بشرى بأن عبد العزيز فهمى سيَطْبع له رسالته على نفقته، وكان من الصفوة التى اختيرت سنة ١٩٤٠ لعضوية مجمع اللغة العربية، وتصادف أن ظل

حبيسَ مرضٍ بداره نحو عام، فرأيى أن يطبع بمكافأته المجمعية فى أثناء مرضه أو ببعض منها كتابا لأحد الشبان الجامعيين، وتحدث فى ذلك إلى طه حسين، فنوَّه له برسالة صاحبى التى نال بها درجة الدكتوراه، وكان موضوعها: «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» فرحَّب بأن تكون هى الكتاب الذى يطبع من حساب مكافأته. وحين أبلغ طه حسين صاحبى بهذا النبأ سره ذلك، لا لأن رسالته ستطبع وتنشر فى الناس فحسب، بل أيضا لأنها ستقترن باسم عبد العزيز فهمى أحد أعلامنا السياسيين والقانونيين الأفذاذ، ومعروف أنه كان أحد ثلاثة دَقُّوا دار المعتمد البريطانى فى ١٣ من نوفمبر سنة ١٩١٨ فلما دخلوا عليه صرخوا فى وجهه مطالبين بجلاء الإنجليز عن مصر إلى غير رجعة، وكان ذلك بدء الاندلاع لبركان حركتنا الوطنية، وسُمِّى هذا اليوم يوم عيد الجهاد الوطنى، وأصبح - فيما بعد - عيدا رسميا للأمة.

وأخذت مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر تُعْنَى بطبع الرسالة وأكبَّ صاحبى على قراءة تجارب الطبع المرة بعد المرة مخافة أن يظلّ بها شىء من الأخطاء المطبعية، ورغبة فى أن تصبح الرسالة خالية من الشوائب والهنات، وكان بين

الأشعار المذكورة فيها بيت للشاعر العباسى بَشّار بن بُرْد قسم فيه العِىَّ، وهو فقدان القدرة على البيان والإفصاح عن المعنى المقصود، أقساما، إذ لم يجعله بشار خاصا بالكلام وعجز اللسان عن بيانه، بل جعله أيضا فى الفعل كما جعله فى الصمت، وكأن عجزا يصاحبهما أحيانا يشبه العجز عن الكلام، مما جعل صاحبى يقول فى تعليقه على البيت: «انظر إلى بشار يقسم العى أقساما غريبة» وذكرها. وجاءته تجربة الطبع الأولى مبدلة فيها كلمة «العى» فى عبارته السابقة بكلمة «الغِنى». وصوَّبها فى التجربة، غير أنها عادت إليه فى التجربة الثانية مصحَّفة إلى «الغنى» كما كانت فى التجربة الأولى، فأعاد تصحيحها، حتى إذا طُبع الكتاب، وراجع هذا الموضع من مواضع تصحيحاته وتصويباته أصابه دهش بالغ، إذ وجد الطابع قد ضاق بكلمة «الغنى» التى صُحِّحت ورُدَّت فى التجربتين الأولى والثانية، فوضع مكانها كلمة «المال» لتكون أكثر وضوحا، وبذلك أصبحت العبارة فى الرسالة المطبوعة هكذا: «انظر إلى بشار يقسم المال قسمة غريبة إذ يقول:

وعِىُّ الفِعـال كعىّ المقـالِ ... وفى الصمت عِىٌّ كعىِّ الكَلِمْ

ولعل فى هذا المثال الذى حدث له فى طبع رسالته لأول مرة ما يخفف على المؤلفين ما قد يظهر فى بعض مؤلفاتهم من أخطاء مطبعية تحرِّف الكلم عن مواضعه. ويقال إن أحد الكتاب الغربيين عُنى أشد العناية بمراجعة تجارب الطبع لأحد كتبه، حتى إذا ظهر الكتاب لم يجد خطأ فى صفحاته لشدة عنايته فى تصحيحها، غير أنه فوجىء بخطأ لم يكن فى حسبانه، إذ رآه على صفحته الأولى فى عنوانه.

ولما أتم طبع رسالته جلَّد منها بعض نسخ لإهدائها إلى عبد العزيز فهمى صاحب الفضل فى طبعها ونشرها تحت أعين القراء. وحدثه صاحبى فى التليفون مستأذنا فى لقائه، ولقيه مرحبا، ورآه شيخا نحيفا لابسا جلبابا أبيض متلفعا عليه بعباءة، مما يؤذن ببساطته، وذكر لصاحبى - متلطفا - أنه كان يقرأ تَوًّا فى ديوان المتنبى وأحد شروحه، وقال له: إنه لفته فيه ما يلفته دائما فى الكتب العربية من تشابه الحروف فى الخط، فالباء والتاء والثاء والنون جميعها صورتها الخطية واحدة. وصمت صاحبى يريد أن يسمع بقية ما عند الشيخ الجليل من أفكار، غير أنه أقبل على

رسالته، يقرأ ما بين يديها من تمهيد يصوِّر منهجها وأقسامها وفصولها، ولم يستغرق ذلك منه إلا لحظة قصيرة، وكأنها ثوان لا دقائق، فقد كان يصوِّب نظره إلى الصفحة فى التمهيد بضع ثوانٍ، فإذا ذهنه شفَّها واستقصى كلَّ ما فيها، وسرعان ما شفَّ ذهنه الصفحات. ووضع الرسالة بجانبه، وأخذ يناقشه فيما وضع للشعر العربى من مذاهب فنية، تدرجت مع عصوره مناقشة الحاذق البصير الذى يستوعب - بدقة - ما يقرؤه. وعجب صاحبى منتهى العجب من هذا الاستيعاب السريع، وهو استيعاب - أو بعبارة أدق - شَفٌّ للكلام، وهو لا ينشأ عند صاحبه إلا بعد دُرْبة طويلة على القراءة، إذ لا ينشأ عفوا، إنما ينشأ عن القراءة المستمرة المردَّدة، ولا بد أن يصحبها تركيز ويقظة شديدان. وفى رأى صاحبى أنه حرىّ بمن يعلمون التلاميذ فى التعليم العام أن يدرِّبوهم عليها وأن يجعلوا لها - طوال العام الدراسى - مسابقات وجوائز، إذ من شأنها أن تعوِّدهم القراءة السريعة والإلمام فى أثنائها بأمهات المسائل فيما يقرءون من كتب. وحسب التلميذ الذى تدرب على القراءة السريعة للكتب شفّ صفحاتها

ومعرفة ماتحتويه باللمح السريع، إذ يقف - بمجرد أن يتناول كتابا ويتصفحه فى ساعة أو بعض ساعة - على أهم ما يتناوله من قضايا وأفكار وآراء، وهى خاصة عظيمة الأهمية والقيمة للجامعيين، إذ تجعل من يتصف بها من كبار المطلعين لكثرة ما شفت «كِمِرا Camera» ذهنه من كتب ومؤلفات، حتى ليصبح موسوعيا فى معارفه، بل قد يصبح فعلا من مؤلفى الموسوعات، بالإضافة إلى أنه تتكوَّن لديه ما يشبه حاسَّة سادسة، وهى حاسة تعين صاحبها على أن يعرف توا الموضوعات التى تهمه فى أى كتاب يتصفحه بلمحة خاطفة.

وعاد عبد العزيز فهمى يتحدث عن صعوبات الخط العربى وأنها ليست فقط فى تشابه كثير من الحروف كالجيم والحاء والخاء مثلا، بل هى تجثم أيضا فى خلو الخط العربى من حروف الحركة المعروفة فى خط اللغات الأجنبية الغربية. وذكر عبد العزيز فهمى لصاحبى صنيع الترك فى نَبْذ الخط العربى وحروفه واتخاذ الخط اللاتينى وحروفه بدلا منه. وقال له: وكيف يكون موقفنا إزاء تراثنا الإسلامى والعربى ومئات الألوف من مجلداته؟ وهل

نعيد كتابتها بالحروف اللاتينية؟ ومضى عبد العزيز فهمى يؤكد لصاحبى فكرته. ولم يلبث أن استأذن منه فى الانصراف وكرر له الشكر الجزيل على إتاحته له طبع رسالته. ومرت أشهر معدودة، وإذا عبد العزيز فهمى يتقدم إلى مجمع اللغة العربية باقتراحه المشهور، وهو استبدال الحروف اللاتينية بحروف الخط العربى فى كتابة العربية، واقترح لخطِّنا أبجدية جديدة تتألف من تسعة عشر حرفا لاتينيا دون زوائد وأحد عشر حرفا لاتينيا بإضافة زوائد إليها تدل بها على الحروف العربية التى ليس لها مقابل فى الحروف اللاتينية كوضع شرطتين على الحرف هكذا (ť) للدلالة على الثاء. وهبَّت الصحف فى وجه المشروع، وهبَّ كثير من المجمعيين فى مقدمتهم عباس العقاد وعلى الجارم، كما هبَّ بعض الجامعيين وفى مقدمتهم عبد الوهاب عزام. ورفض المجمع المشروع فى فبراير سنة ١٩٤٤.

وفى أحد الأيام بتلك السنة دخل صاحبى مكتبه فى قسمه بكلية الآداب، وإذا بشاب عربى يتهلَّل وجهه بشرا، يعرِّفه بنفسه، إنه سامى الدهان الحلبى السورى الطالب

بجامعة السوربون بباريس، زار القاهرة، ورأى فَضْلا منه: أن يزور قسم اللغة العربية بآداب جامعة القاهرة وأن يتعرَّف على صاحبى، وكان يقرأ له مقالاته التى كان ينشرها فى مجلة الثقافة. وكان سامى قد أنجز تحقيقه الرائع لديوان أبى فراس الحمدانى، وتمنى لو وافقت جامعة القاهرة على مناقشته فيه، وحصل منها على درجة الدكتوراه فى الآداب بدلا من حصوله عليها من السوربون الفرنسية، لعروبة كانت متأصلة فى نفسه، جعلته يشعر فى عمق أنه أولى له أن يحمل درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة لا من جامعة باريس. ووقفت لوائح جامعة القاهرة عقبة كأداء فى سبيله، فلم تتحقق له أمنيته، مما جعله يشد الرحال ثانية إلى جامعة السوربون، ومنحته درجة الدكتوراه بتقدير عظيم. وقد كفل للديوان من التحقيق العلمى ما ظل يبهر به دارسى أبى فراس إلى اليوم. وفرح صاحبى بلقاء هذا الأديب المحب لتراث الآباء حبا يفوق كل وصف مما جعله يعنى دائما بالتحقيق لبعض كنوزه وفرائده. وسأله بعد لقائه والترحيب به أن يرافقه إلى منزله ليتناول الغداء معه، غير

أنـه قال لـه: لعلك توافقنى عـلى الـذهـاب إلى حـديقـة الحيـوان، فنقضى بهـا بعض الـوقت للغـداء والاسـترواح والمتعة، ووافقه صـاحبى، ودخلا الحـديقة وأخـذا يتصفحان بعـض منـاظرها ومشـاهدها وتناولا بعـض الطـعام بحديـقة الشاى، وسـامى يتحدث حديثا رشيقا، إذ كان خفيف الروح حـاضر البديهة سـريع الجـواب رقيق الشمائل، لا تمل الاستماع إليه، بل تبتغى دائـما المزيد منه استحسـانا واغتباطا. وحين هـمّ مع صديقه بالانصراف وضـع يده فى «جَيْبه»، فإذا هـو قـد نسى كيس نقوده فى بيته، فلم يحمله معه، وظهر على وجهه شىء من علامات الارتبـاك، وأدرك صـديقه مـا دهاه فـابتسم قائـلا: لا تحـاول إنـك ضيفى، ولا تعجب، فـأنت دائـما ضيف، يشـير بـذلـك إلى لقبـه، وانعقدت بينهما من حينئذ صداقة صافية لم تشبها يوما أى شائبة، وظلت تزداد مع الأيـام توثقـا، وظل نعم الصـديق وفاء وإخاء.

وكان صولجان الحكم بيد حزب الوفد ورئيسه مصـطفى النحاس، ومما يذكر لوزارته - حينئذ - دعوتها الحكومات العربية لإقامة جامعة لهم باسم الجامعة العربيـة، واجتمعت

لذلك وفود من مصر ولبنـان وسوريـا والأردن والعراق فى هيئة لجنة تحضيرية، ووضعت هـذه اللجنة مـا عُرف بـاسم بروتوكول الإسكندرية، غير أن وَضْع ميثاق الجامعة تـأخر إلى شهر مارس سنة ١٩٤٥ لعهد وزارة أحمـد ماهـر. وفى مـايو من هـذه السنة استسلمت ألمـانيا للحلفـاء دون قيد أو شـرط، وتبعتها اليـابان فى أغسـطس بمجـرد أن ألقت الولايات المتحدة القنابل الذرية على مدينتيها: هـيروشيما وناجازاكى، وبذلك انتهت الحرب العالمية الثانية.

وعجب صـاحبى من أن مصر لم تسـارع عقب انتهـاء هـذه الحرب إلى الثـورة على الإنجليـز، كما ثـارت عليهم عقب انتهـاء الحرب العـالمية الأولى سنـة ١٩١٨ ثـورتهـا العنيفة المشهورة، وفيها اشترك أبناء مصر جميعـا: الشباب والشيـوخ والنسـاء والعـمال والقـرويـون إذ هبَّ الجميـع ينـاضلون الإنجليز نضـالا مستميتـا، حتى المـوت الـزؤام. وظلت هذه الروح الوطنية الثائرة مشتعلة لا تخمد سنوات طـوالا، مما أرغم الإنجليـز على إعـلانهم تصريـح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ معترفين باستقـلال مصر، وإن تنقصـوه بما قَصُّوا من أجنحته. وكان منتظرا أن تعود سـريعا هـذه

الروح الوطنية الثائرة بعد الحرب العالمية الثانية وأن تكون أشد اشتعالا واضطراما وضراوة، غير أنها لم تعد بنفس القوة، وكأنما أصابها وهن، وهو وهن تتحمل مسئوليته - من بعض الوجوه - الأحزاب السياسية التى نسيت قضايا الوطن ومصالحه العليا ومطامحه فى الاستقلال التام، ومضت تتطاحن وتتصارع فى سبيل الوصول إلى كراسى الحكم. على أن من الحق أن جذوة هذه الروح ظلت مكتنة فى صدور الشباب الجامعى، وظلت تتقد - من حين إلى حين - فى مظاهرات صاخبة. واستدار العام ونشر صاحبى كتاب «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» على غرار كتابه: «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» الذى طبعه على نفقته - كما مر - عبدالعزيز فهمى، فرأى أن يهدى إليه نسخة من كتابه الجديد تكرارًا لشكره على صنيعه فى الكتاب السالف، وكلمه فى التليفون ولقيه - كما لقيه فى المرة السابقة - مرحبا به، ولابسًا جلبابا أبيض متدثرا عليه بعباءة، حتى إذا جلسا معا قدم إليه الكتاب، فقرأ مقدمته فى سرعة تشبه سرعة البرق الخاطف للأبصار، ثم وضعه بجانبه وأخذ يحاوره فيما وضع للنثر العربى بمختلف

عصوره من مذاهب ومدارس فنية. وتشقق الحديث، وكان مما حدثه عنه ترجمته لمدوَّنة جوستنيان فى الفقه الرومانى، وأخذ يصوِّر له مدى ما تجشَّم فى ترجمة الكتاب من عناء ومشقة. وذكر له كيف أنه رجع فى ترجمته إلى أدق الترجمات الفرنسية للمدوَّنة عن أصلها اللاتينى وأدق ما كُتب حولها من شروح. وقد ذكر ذلك مفصَّلا فى مقدمته لترجمة الكتاب، وذكر لصاحبى شيئا لم يصوره فى تلك المقدمة، ولم يعرف السبب فى أنه لم يتحدث عنه، وقال: ربما كان سبب ذلك التواضع، ووَدَّ لو أنه تحدث عنه طويلا وتفصيلا كى يكون حافزا للشباب من المترجمين كى يحاكوه فيه، بل حافزا للمترجمين عامة، حتى يؤدوا للترجمة حقوقها كاملة، أو على الأقل حتى يحاولوا - جاهدين - النفوذ إلى أدائها على خير وجه ممكن، فقد ذكر أنه حين همَّ بترجمة المدوَّنة لم يكتف بإتقانه للفرنسية، فقد رأى أن يتزوَّد باللاتينية: اللغة الأصلية للمدوَّنة، حتى إذا انبهم عليه فهم عبارة أو لفظة فى الترجمة الفرنسية رجع إلى أصلها فى اللاتينية، وقال لصاحبى: إنه كان قد عرف مبادئ تلك اللغة وبعض ألفاظها وصيغها فى أثناء

دراسته بمدرسة الحقوق العليا فى أواخر القرن الماضى. ثم ذكر أنه حاول أن يحصل على نسخة لاتينية للمدوَّنة وسأل عنها بعض أصدقائه الحقوقيين. فلم يجدها، وكاد ييأس من عثوره عليها، وأخيرًا عرف أن حقوقيا بارزا هو الدكتور كامل مرسى - يقتنيها، فطلبها منه، فحملها إليه مغتبطا، ومضى ينظر فيها أحيانًا - كما قال - حين تغمض عليه عبارة أو كلمة فيما بين يديه من الترجمات الفرنسية، حتى يؤدى معانى المدوَّنة القانونية على وجهها الصحيح، وحتى يؤدى دلالات ألفاظها أداء دقيقا سديدا.

وتولى صاحبى العجب من هذا الجهد العنيف فى الترجمة وما بذله فيها من عناء شديد هذا الشيخ الهرم وقد بلغ الثمانين أو أكثر من عمره، وكانت لا تكاد تمضى دقائق معدودة حتى تنتابه نوبة شديدة من نوبات مرض الرَّبْو الثقيل، أو قل عاصفة، إذ كان جسمه يهتز مع كل نوبة اهتزازا شديدا، وكان نحيفا ضامرا: جِلْدا على عظم، كما يقولون، وكان صاحبى مع كل نوبة أو عاصفة للرَّبو يخال أن هذا الجسم النحيل قد تداعى بنيانه، حتى ليوشك أن يسقط جسمه فى العباءة المتلفع بها. غير أنه سرعان ما كان

ينهض من جديد ويعود إليه جَلَده فيتابع حديثه. وعلى الرغم من هذا المرض الوبيل ومن سنه العالية أكبَّ على ترجمة مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى محيلا كل سطر فيها إلى ما يشبه صراعا بينه وبين ترجماته الفرنسية وأصله اللاتينى من جهة، وبينه وبين اللغة العربية لتحمل أوانيها اللغوية معانى المدوَّنة وما يطوى فى دلالاتها من خفايا ودقائق غامضة.

وكان صاحبى يقول: لعل فى ذلك ما يصوِّر بعض الفروق بين كثيرين من الجيل المعاصر حين يترجمون من لغة أجنبية إلى لغتهم العربية وبين الجيل الماضى وأعلامه النابهين الذين كانوا يشقون على أنفسهم فى كل ما ينهضون به من ترجمة وغير ترجمة. ولو أنك طلبت اليوم إلى شاب يترجم نصا أدبيا ألمانيا من الإنجليزية أن يتعلم الألمانية ليقارن بين الأصل الألمانى وترجمته الإنجليزية حتى يكون نقله النصَّ إلى العربية أكثر وفاء بدلالاته ومعانيه كما ترسمها لغته الأصلية لظن أنك تمزح معه، وهذا شيخ عالى السنِّ يوشك أن يستنفد العقد الثامن من عمره أو لعله تجاوزه، والرَّبْو يجثم بكلكله على صدره ويأخذ بخناقه وأنفاسه، ولا يقعده الرَّبْو ولا علو السن ولا ضعف البنية ولا وهن العظم عن أن يحقق لترجمة

مدوَّنة جوستنيان ما ينبغى لها من أن تكون مثلا أعلى فى الترجمة للفقه الرومانى دون أن يملأ الدنيا ضجيجا بعمله وأنه أتى فيه بما لم يأت به الأوائل، كما يحلو لبعض المعاصرين أن يقول ذلك عن نفسه مباهيا. أما عبد العزيز فهمى فإنه يقدم ترجمته لرجال القانون وطلابه بكل تواضع ومع الحياء الجمّ. وهى صورة باهرة لأحد رجالاتنا الثلاثة الذين صاحوا فى وجه المعتمد البريطانى: اخرجوا من مصر، فتزلزلت الأرض تحت قدميه وانفجر بركان الثورة المصرية وظل يرمى الإنجليز بحممه وقذائفه الملتهبة. وكان عبد العزيز فهمى مفخرة من مفاخر القانون المصرى وها هو بأخرة من عمره ومرض الربو يعصف بجسمه الضاوى النحيل يعكف على مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى، ينقلها إلى العربية فى أدق صورة للغة الفقه والقانون.

وكان طلاب الجامعة لا يزالون من وقت إلى آخر يثورون على الإنجليز ويخرجون فى مظاهرات ضخمة، يخترقون بها بعض شوارع القاهرة، وكانت تنضم إليهم بعض جموع من الشعب، ويهتف الجميع مطالبين الإنجليز بالجلاء. وكان يحدث أحيانا صدام عنيف بين طلاب الجامعة وبين قوى الشر

والعدوان، وتسوَّل للإنجليز شياطينهم أن يصوبوا من سياراتهم المصفحة الرصاص إلى صدور الشباب ويسقط فى ميدان الشرف غير شهيد. واضطر الإنجليز بتأثير غضب الطلاب والشعب عليهم أن يجلوا عن القلعة فى يولية سنة ١٩٤٦ وفى شهرى فبراير ومارس لسنة ١٩٤٧ جلوا عن ثكناتهم ومعسكراتهم فى القاهرة والإسكندرية ورُفع العلم المصرى على ثكنات قصر النيل. وكان محمود فهمى النقراشى رئيسا للوزارة، فرأى عرض قضية مصر على مجلس الأمن، وعرضها فى شهرى أغسطس وسبتمبر، واستخدم الإنجليز أفاعى مكرهم السياسى، واستطاعوا أن يحملوا مجلس الأمن - وكان يرأسه جروميكو ممثل الاتحاد السوفيتى - على اتخاذ قرار خطير بتأجيل النظر فى قضية مصر إلى أجل غير مسمى، مع الاحتفاظ بها فى جدول أعماله.

٢

وكانت مصر قد أخذت تُشْغَل بقضية العرب مع اليهود بفلسطين، واتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا خطيرًا بتقسيمها إلى دولتين: دولة عربية، ودولة يهودية. وصوّت - فى جانب القرار مع الدول الغربية - الاتحاد السوفيتى والدول التى تدورُ فى فلكه، فإذا هى توافق على قيام هذه القاعدة العسكرية - بل الإسفين المسلّح - بين الدول العربية، واشتدّ هياج العرب فى كل مكان، وأعلن الإنجليز فى ١٥ من مارس سنة ١٩٤٨ مغادرة فلسطين وتصفية إدارتهم المدنية بها وجلاءهم عن «تل أبيب» والمناطق اليهودية، وبذلك أتاحوا لليهود الفرصة للاستيلاء على أداة الحكم فى فلسطين وعلى المطارات والمرافق العسكرية. وتمادى اليهود فى عدوانهم على القرى العربية بفلسطين، وهاجموا فى أبريل قرية «دير

ياسين» وذبحوا أهلها: رجالا ونساء وشيوخا وشبابا وأطفالا غير مراعين ذمة ولا عهدا ولا أى معنى من معانى الإنسانية، وكثرت المظاهرات فى البلدان العربية احتجاجا على هذا العدوان الوحشى الغاشم. ومضى الإنجليز فى عَوْن اليهود فسلَّموهم مدن حيفا ويافا وصفد وطبريَّة. وهاج الرأى العربى العام، ودفع حكوماته إلى التدخل العسكرى لإنقاذ فلسطين. وزحفت الجيوش العربية فى شهر مايو، وكالتْ لليهود ضربات قاصمة، وسرعان ما صرخوا واستغاثوا بالولايات المتحدة، وأغاثتهم عن طريق مجلس الأمْن فقرر هدنة بين الطرفين المتحاربين، ظلت أربعة أسابيع، واستغلَّها اليهود، فاستكملوا نقصهم فى السلاح والعتاد الحربى. واستؤنفت الحرب فى أوائل يولية، وكبَّد العرب اليهود خسائر فادحة، غير أن القوة الأردنية انسحبت، وتلتها فى الانسحاب القوة العراقية، وقرَّر مجلس الأمن هدنة ثانية. وظل الجيش المصرى وحده ينهض بعبء القتال فى الجنوب، وحاصر اليهود اللواء الرابع فى الفالوجا، وصمد فى استبسال نادر إلى أن وافقت مصر على هدنة ثالثة فى يناير سنة ١٩٤٩.

وهكذا أنشأ اليهود بمساندة الاستعمار دولة لهم فى فلسطين

مغتصبين ديارها بالسلاح والمذابح الإرهابية وإرغام أهل فلسطين على الخروج من ديار آبائهم وأجدادهم، حتى لقد بلغ اللاجئون منهم إلى الضفتين الشرقية والغربية لنهر الأردن نحو نصف مليون نسمة، وأربى اللاجئون إلى لبنان على مائة ألف، وكذلك إلى سوريا، وأيضا إلى غزة، غير من لجئوا إلى مصر والبلدان العربية. ويبلغون جميعا نحو مليون انتزعهم اليهود من جذورهم فى المدن والقرى الفلسطينية، وشتتوهم، وكم من قرية فلسطينية محوها محوا بحيث لن نعود نراها ثانية على خريطة فلسطين. وكل ذلك اقترفوه دون أن يتعظوا بتاريخهم القديم وما حدث لأجدادهم الأولين حين اجتاحت جحافل بختنصر ملك بابل عاصمتهم أورشليم ودمرتها ودمرت هيكل سليمان وساقت أهلها من اليهود فى السلاسل والأغلال إلى بابل، وظلوا هناك نحو قرن مسترقين مستعبدين إلى أن فتح الفرس بقيادة قورش بابل، فأذنوا لهم بالعودة إلى فلسطين وكانوا يحتلونها، واحتلها بعدهم اليونان فالرومان فبيزنطة، ومنها استخلصها العرب فى الفتوح الإسلامية واستوطنوها، وظل منهم جمهور سكانها، وظل صولجان الحكم بأيديهم أكثر من ثلاثة عشر قرنا، بينما كانت

مدة دولة اليهود القديمة المسماة مملكة أورشليم لا تزيد عن ثلاثة قرون. وإذا كانت ديار فلسطين ظلت لا تبرح ذاكرة أسلافهم الذين نفوا منها إلى بابل، وظلوا ينوحون عليها ويبكون حتى عادوا إليها بعد نحو قرن من الزمان أفيكون معقولا أن تبرح تلك الديار ذاكرة أهلها من العرب بعد أن ظلوا يسكنونها أربعة عشر قرنا متعاقبة، وهم لم يجلوا عنها نهائيا كما جلا أسلاف اليهود إلى بابل، فقد جلا منهم شطر لا يزال يعيش أكثره على تخومها فى انتظار العودة، وشطر ثان لا يزال يعيش فى دياره، وهل يمكن لأحد فى الشطرين أن ينسى وطنه وداره وأرضه وما فيها من بساتين وكروم وزيتون؟ إن كثيرين من الشطرين يقفون على أبواب فلسطين وفوق أرضها وبين أشجارها يحملون النصال والسهام، ويزرعون الألغام، ويلقون بالقنابل على رؤوس اليهود وبين الأقدام. وإنه لحرى بإسرائيل أن تعرف أن اغتصاب أرض بالقوة من أهلها وإقامة دولة عليها لا يمكن أن يدوم فضلا عن أن يفرض على منطقة عربية ضخمة وشعبها الكبير.

وفى صيف هذه السنة رأى صاحبى أن يقضى مع أسرته شهرا فى جزيرة قبرص، المعروفة بشرقىّ البحر المتوسط،

وكان العرب قد فتحوها فى ولاية معاوية على الشام، وظلت موالية لهم إلى أن استولى عليها الصليبيون، وفى سنة ١٤٢٥ للميلاد حرَّرها السلطان المملوكى برسباى، ثم استولت عليها البندقية إلى أن فتحها العثمانيون وأصبحت جزيرة تركية. وفى سنة ١٨٧٨ تنازلوا عنها للإنجليز بثمن بخس: جنيهات إنجليزية معدودة. وكان جمهور سكانها - حينئذ - من الترك، غير أن اليونانيين ظلوا يهاجرون إليها إلى أن أصبحوا بها الآن أضعاف الترك، واحتكروا لأنفسهم الأنحاء الجنوبية الخصبة فيها والمصيف الجبلى وبلدانه، وتركوا للترك الأنحاء الشمالية الجرداء. ورحل إليها صاحبى مع زوجته وابنه الصغير ونزلوا جنوبيها فى ميناء ليماسول، وكان قد سأل عن بلدان المصيف واختار لإقامته بلدة «بيدولاس» وخُيِّل إليه كأنها محرفة عن كلمة «بيت الله» وأن اسمها كان هكذا فى العهد التركى، وأمضى بها نحو شهر قضاه فى منزل صغير استأجره، وكثيرا ما كان يتناول إفطاره عند عين مياه ثَرَّة على بعد نحو ثلثى ساعة من بيدولاس فى طريق صاعد على جبل وعر تحفّ به غابات، وكان يحمل فيه ابنه، محتاطا أشد الحيطة، إذ كان الطريق الجبلى وعرًا شديد الضيق، وعلى أحد

جانبيه حافة الجبل تردّه إن أراد الانحراف إليها وعلى جانبه الآخر وادٍ تَهْوِى الأرض فيه إلى دَرْك بعيد. ويصل مع زوجته وابنه إلى العين بعد جهد جهيد، وبعد المتعة بمناظر الغابات والأشجار السامقة. وعند العين ساحة واسعة ومقهى لراحة روادها، وماء العين صاف وخفيف جدا مع عذوبة وبرودة، ويقال إنه يشفى من أمراض كثيرة. وكان كل شيء فى قبرص من طعام وغير طعام رخيصا رخصا غير عادى، وكان أهلها - حينئذ - يعانون من احتلال الإنجليز للجزيرة واعتصارهم لطيبات أرضهم وما تنتج من الفواكه وخاصة الكريز، وكانت طياراتهم ماتنى تنقله إلى لندن بأرخص الأثمان، بينما يعيش القبارصة معيشة ضنك وإعسار وإقتار. ودائما كان أهلها يرحبون بصاحبى وبزوجته، وهو ترحيب يسبغونه على كل من يفد على جزيرتهم من المصريين. وزار نيقوسيا العاصمة، وصلى بمسجدها الكبير، وتعرَّف على إمام المسجد، ووجد به مكتبة حافلة أطلعه أمينها التركى على فهرسها، وتصفح طائفة من كتبها الفقهية واللغوية والتاريخية، ورأى من ذلك كله كنوزا، وعلى كثير من هذه الكنوز إهداء هذا السلطان العثمانى أو ذاك أيام أن كانت الجزيرة تابعة

للترك فى العهد العثمانى.

وذات ليلة رأى أهل بلدة «بيدولاس» يمضون فرادى وجماعات كأنما يريدون الفرجة على شىء، فسأل أحدهم عن وجهتهم وعرف منه أنهم متجهون للفرجة على «أراجوز» وعجب أن يكون فى قبرص أراجوز يضحك الناس، وقال لزوجته: هيًّا بنا نذهب معهم للفرجة على هذا الأراجوز القبرصى، ووجداه مثل الأراجوز الذى كان يختلف إليه أبناء القاهرة فى الجيل الماضى للفرجة عليه: نفس الصندوق ونفس الدمى التى كانت تظهر متحركة عليه ناطقة بلسان من يحرِّكها، والناس جلوس على «دِكَك» أو أرائك مصفوفة يتفرَّجون ويضحكون. وجلس صاحبى مع زوجته وابنه الطفل على «دكة» وتوالت أمامهم مشاهد مضحكة تتخللها سخريات كثيرة من حاكم طائش، يعرض الناس عليه قضاياهم فيحكم فيها أحكاما جائرة تصور غفلته وذهوله واختلاط الأمور عليه، فيضحك النظارة ويغرقون فى الضحك، وكأنه قراقوش حاكم القاهرة لعهد صلاح الدين الذى صوَّر ابن مماتى أحكامه بين الناس فى صور ساخرة مضحكة تعرض غباءه وبلاهته وغفلته. وقد هاجرت كلمة

«قراقوش» فى العصور الوسطى إلى تركيا وتحولت هناك إلى «قراجوز» وأصبحت هناك - كما كانت فى مصر - ملعبا من ملاعب خيال الظل يصور الحاكم الظالم لعبة أو دمية تتحرك بأسلاك الغفلة والغباء، إذ لا يكاد الحاكم يبدأ النظر فى قضية حتى يضطرب عليه الأمر ويتشوش تشوشا شديدا، فيقلب الأوضاع، فإذا المدعى متهما والمتهم مدعيا، ويضرب المشاهدون كفا بكف ضاحكين ساخرين. وهذا المسرح الهزلى القديم انتقل من تركيا إلى القبارصة الأتراك، وأخذه عنهم القبارصة اليونانيون للتنديد على حكامهم، وظلوا يتخذونه فى أيام الاحتلال الإنجليزى لغرض الضحك والفكاهة وتسلية المشاهدين.

وكان يصطاف حينئذ ملك مصر: فاروق فى جزيرة كابرى بإيطاليا، وتمادى فى طيشه وغَيِّه وقماره وأخذت الصحف القبرصية - مثل الصحف الأجنبية - تتحدث عن نزقه وسفاهته. وفى صيف السنة التالية: ١٩٥٠ اصطاف فى دوفيل بفرنسا وازداد نزقه وقماره وغَيّه سوءًا ما بعده سوء، وأخذت الصحف فى أرجاء العالم تتحدث عن بعثرته الأموال الطائلة دون حسيب أو رقيب من حكومته، ولكن أى

حكومة؟ لقد دأبت الحكومات المصرية على تقديم فروض الولاء له، حتى أصبح مع كل نزواته يشعر أنه صاحب السلطان المطلق فى البلاد. وأخذ الشعب ييأس من إصلاحه وردِّه إلى الطريق السوىِّ السليم، كما أخذ ييأس من الأحزاب، وخاصة أحزاب الأقلية التى استحالت إلى فئات من المستوزرين، وكل فئة تنتظر دورها فى الحكم. وكان الشعب قد يئس منها: فلا هى قادرة على إرغام الإنجليز أن يردوا على الأمة حريتها واستقلالها التام، ولا هى قادرة على كبح جماح الغلاء الجاثم كابوسه على صدر مصر منذ انتهاء الحرب. وأخذ الشعب الباسل يقاوم بنفسه الإنجليز فى قناة السويس مقاومة ضارية، إذ تألفت منه فرق فدائية: من شباب الجامعة ومن الإخوان المسلمين ومن أبناء محافظة الشرقية. ومضت هذه الفرق الفدائية تغتال كثيرين من جنود الإنجليز فى القناة، وكان بينهم بعض الشباب، فولولت أمهاتهم فى إنجلترا طويلا، وكان لذلك أثره - فيما بعد - فى خلاص مصر من نير الاحتلال البغيض.

وأخذ غضب الشعب على فاروق يزداد حدة وعنفا، حتى إذا كانت أواخر شهر يناير لسنة ١٩٥٢ إذا الشعب يوقد

النار فى متاجر القاهرة وملاهيها وبعض فنادقها الكبيرة، وظلت النار متأججة مشتعلة إلى ساعة متأخرة من الليل، وكان ذلك نذيرا واضحا بأن عهد الملكية يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. وكانت طائفة من ضباط الجيش الأحرار ممن عادوا من الحرب مع إسرائيل يألمون لما كان يُرْسَل إليهم فى تلك الحرب من الأسلحة الفاسدة، ولما صارتْ إليه أوضاع الحكم فى مصر من سوء، وأخذت قوتهم فى الجيش تتراءى فى وضوح إذ استطاعوا تغيير إدارة ناديه واختيار رئيس له بإرادتهم لا بإرادة فاروق وأشياعه. وكان صاحبى تعوَّد قضاء شطر من الصيف فى الإسكندرية ونزلها فى شهر يولية وفى ليلة الثالث والعشرين منه استيقظ فى أخريات الليل فشعر بحركة غير عادية لسيارات الجيش إذ تمر متعاقبة على الكورنيش، حتى إذ أطلّ الصباح استمع فى الإذاعة إلى نداء الثورة للضباط الأحرار، وفى الساعات الأولى من الصباح أخذ أزيز الطائرات الحربية يملا سماء الثّغر، وأخذت تلّقى منشورات على المصطافين فى شواطىء الإسكندرية تبشرهم بقيام الثورة، وتطورت الأحداث سريعا، فأصبحت السلطة العسكرية والمدنية بيد الضباط الأحرار، وتنازل فاروق عن

عرشه لابنه أحمد فؤاد، ورحل عن مصر إلى إيطاليا.

واختار الضباط الأحرار محمد نجيب قائدًا لهم، وأُلفت وزارة انتقالية ألغت الرتب والألقاب المدنية، ثم تألفت وزارة برياسة محمد نجيب أصدرت قانون الإصلاح الزراعى وعفوًا عن المحكوم عليهم فى جرائم سياسية، وحلّت الأحزاب. وأعلنت قيادة الثورة وجوب تطهير الأداة الحكومية. وقدمت للوزارة كثرة من أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب فى جامعة القاهرة - لم يكن صاحبى بينهم - شكاوى ضد العميد واستحال ذلك إلى محنة خطيرة امتحنت بها الكلية امتحانا تكشفت فيه الأخلاق عن مكنوناتها من التنافس والتخاصم، وتألفت لجنة للتحقيق وأخذت الصحف تكثر من الحديث فى هذه المحنة. وفوجىء بخطاب من أستاذه الدكتور عبد الوهاب عزام عميد الكلية الأسبق ورئيس قسمه - وكان قد أصبح سفيرا لمصر بباكستان - وإذا هو يقول له فى خطابه: إذا كنت قد ضقت بشىء فى الكلية - وكان اللغط قد تكاثر عنها فى الصحف كثرة مفرطة - فإن لك عندى عملا فى السفارة على الرحب والسعة، وأنا فى انتظار ردّك. وردَّ عليه شاكرا ذاكرا له أنه لا علاقة له بكل ما حاق

الكلية وأنه يؤثر البقاء فيها مع طلبته ولا يبغى بذلك بديلا.

وهى صورة رائعة من صور وفاء الأساتذة الجامعيين تلاميذهم، إذ يحفظون لهم حقوق التلمذة عليهم، ويظلون وُدّونها، قائمين منهم مقام الآباء من أبنائهم، وكما أن الأب حنو على ابنه ويشفق عليه ويظل يتفقده، وإن مسّه - و شعر بأنه سيمسّه - ضيم سارع إلى نجدته، وإن توقّع أذى يلمٍّ به اتخذ كل الأسباب لدفعه عنه، كذلك الأساتذة لأوفياء لتلاميذهم، وحقا لا تصلهم بهم الرابطة التى تصلهم آبائهم: رابطة العرق والدم، غير أنه تصلهم بهم رابطة العقل الفكر والروح، فهم - إن لم يكونوا آباءهم نسبا وقرابة - باؤهم روحا وفكرا. ومنذ كان صاحبى طالبا فى قسمه ثم صبح به معيدا فعضوا فى هيئة التدريس كان أستاذه عبد الوهاب عزام حفيا به وكان جم التواضع، وكان تلاميذه حبونه ويجلونه ويُعزّونه، وحرى بأن يكون التواضع خلقا عاما فى كل أستاذ جامعى، إذ ينهض بأشرف الأعمال من ربية الشباب فى الأمة، فينبغى أن يكون لطلابه لينّ الجانب وطّأ الكنف لا يستعلى عليهم ولا يستظهر عُجْبا بعلمه، لا يعنف بهم أى عنف، ولا يتنقص من قدرهم بل دائما بِشْر

وطلاقة وجه وكلمات طيبة، بذلك تسود المودة بين الأستا
الجامعى وطلابه فيكونون موضع تقديره ورعايته ويكون ه
موضع توقيرهم وإجلالهم، ولا يكون العلم فى الجامعة عل
فحسب، بل يكون أيضا تربية سديدة وخلقا قويما.

وفى أول يونية من سنة ١٩٥٣ قرر مجلس قيادة الثور
إلغاء النظام الملكى بمصر وقيام النظام الجمهورى برياس
محمد نجيب وكان بعض النقاد قد أخذوا يشنون فى الصحف
والمجالات حملات عنيفة على الشاعر شوقى لما له من مدائ
فى الأسرة العلوية، فكانوا يلقبونه شاعر أسرة محمد عل
وشاعر القصر وشاعر السراى، وهو لم يكن يمدح من اعتل
أريكة مصر من الأسرة العلوية لشخصه، وإنما لأنه من حكا
مصر التى عاش يتغنى لها أمجادها الفرعونية ومشاعره
الوطنية وعواطفها القومية مذكيا فيها وفى الشعوب العرب
الحمية لنضال المستعمرين الباغين نضالا مستميتا. وكانت
الحملات الظالمة على هذا الشاعر العبقرى الذى أكسب
مصر - بين البلاد العربية - مجدا عظيما فى الشعر العرب
ما تنى تملأ الجو الأدبى بغبار كثيف يحجب حقائق شعره

وتأثر صاحبى لمصر وشاعرها الكبير شوقى، فكتب عن

كتابا حلَّل فيه شعره الغنائى والتمثيلى موضحا مكانته فى الشعر العربى الحديث. وكانت الدولة قد رصدت - قبيل عهد الثورة - جائزة فى الآداب نالها أدباء كبار مثل طه حسين وعباس العقاد ومحمد حسين هيكل، فرأى القائمون على الثورة إعادتها فى سنة ١٩٥٥ وألفت لذلك لجنة بينها طه حسين وعباس العقاد. وكانت عادة تمنح لأديب وينوَّه فيها بأحد كتبه، دون أن يتقدم إليها، فاللجنة هى التى تختار مستحق تلك الجائزة، ولم يكن يقع فى خاطره أنه سيرشح لها أو أنه سينالها، وحين اقترب موعد الإعلان عن مستحقها لتلك السنة أخذ بعض أصدقائه يقولون له: إن اسمك سيلمع فى الصحف، وهو يبتسم، ويظن ذلك من باب المزاح، وفى يوم من أيام الصيف وكان مسافرا إلى الإسكندرية لقضاء فترة من إجازته السنوية إذا هو يقرأ فى الصحف أن لجنة جائزة الدولة للأدب قررت منحها له مناصفة لكتابه عن شوقى شاعر العصر الحديث، وتولاه العجب لأنه كان بين أعضائها طه حسين وعباس العقاد وكان قد عرض فى الكتاب نقدهما العنيف لشوقى الذى نشراه فى حياته، وتصادف أن أحدا لم يتصدَّ للرد عليهما بقوة وبيان ما فى نقدهما لشوقى من تجن

مسرف وطعن مجحف فى شاعريته. وقد ناقش فى كتابه هذا النقد وأوضح ما فيه من تعصب على شوقى وتهجين وتنقص شديد لشعره، وفند منه ما يستحق التفنيد مع وضع شوقى فى مكانته الرفيعة من الشعر العربى الحديث.

وحمد صاحبى لطه حسين وعباس العقاد موقفهما منه ومن كتابه، مع أنه فيه يعارضهما وينقض آراءهما النقدية فى شوقى مما يدل - بوضوح - على مدى ما كان يتحلّى به كل منهما من نزاهة فى الحكم على ما يقرأ وعدم التأثر فيه بأى شىء حتى لو كان متصلا ببعض آرائه، بل حتى لو ناقض هذه الآراء وأثبت بطلانها. وهذا الموقف النبيل إزاء الكتاب وما يحمل من نقض آرائهما صحح لصاحبى ما كان يقال - ويتردد عن العقاد - من أنه عُدْوانى وأن أحدا لا يستطيع أن يعارضه فى بعض ما يذهب إليه من آراء - وخاصة فى الشعر والشعراء - إلا ويصبّ عليه جام غضبه، ويصليه نارا حامية من كلمه، فقد تراءى له بوضوح أنه ليس عدوانيا كما يقال، فإنه حين قرأ ردوده عليه فى الكتاب، ورآها ردودا لإحقاق الحق الأدبى فى ذاته لم تأخذه - كما لم تأخذ طه حسين - العزة

بالإثم، بل أعجبا بالكتاب وأثنيا عليه، بل هما اللذان اقترحا له الجائزة مناصفة قبل تقسيمها - فيما بعد - إلى تقديرية وتشجيعية.

٣

وفى ٢٦ من يولية سنة ١٩٥٦ أعلنت مصر تأميم شركة قناة السويس العالمية، وكانت تلك الشركة مأساة كبرى لا مثيل لها فى التاريخ، فإن مصر حُرمت من قناتها التى حفرها أبناؤها، والتى جرت أول ما جرت بدمائهم الزكية، ولم تخسر القناة فقط، بل خسرت أيضا أرضها باحتلال إنجلترا لديارها كى تصبح القناة مفتاح الطريق إلى الهند ملك يدها وطوع إرادتها. وثارت ثائرة الدول الاستعمارية - لتأميم الشركة - وخاصة إنجلترا وفرنسا، وقد جمّدتا ما لمصر من الأرصدة المالية، وحذت الولايات المتحدة حذوهما، وتكاثر الإنذار والوعيد، ومضت مصر لا تأبه لأى تهديد.

وكان اتحاد الكتّاب فى رومانيا وروسيا وجّه دعوة إلى اتحاد كتّاب مصر كى يرسل وفدا منه لزيارة البلدين، ووقع

لاختيار على صاحبى مع أربعة تألف منهم جميعا الوفد، وبارحوا القاهرة فى الحادى عشر من شهر سبتمبر متجهين إلى روما. وفوق جبال أبنين فى جنوبى إيطاليا أبعدت الطائرة فى الارتفاع صاعدة فى السماء، وسمع موسيقى بديعة، فقال لجاره بعد برهة: ما أجملها من موسيقى، يظن أنها تصل من أحد أركان الطائرة، فقال له: إنى لا أسمع شيئا، فتنبه إلى أن ما يسمعه من هذه الموسيقى إنما هو بسبب ارتفاع الطائرة فى أجواز الفضاء، ووضع قطنا فى صماخ أذنه حتى لا يسمع شيئا، وظل مع ذلك يحس ألما فى أذنيه بضعة أيام. وتذكر الأسطورة الإغريقية عن جزيرة السيرينات فى البحر المتوسط جنوبى بلاد اليونان، إذ زعم الإغريق قديما أن بحارة السفن حين كانت تقترب من هذه الجزيرة يستمعون إلى غناء مَنْ بها من السيرينات، ويخالون كأنما يمددن إليهم أذرعتهن البَضّة البيضاء الجميلة لعناقهم، وويل للسفينة التى كانت تستجيب إليهن، إذ سرعان ما كانت تتحطم - حين اقترابها منهن - على الصخور الممتدة مثل السوار حول الجزيرة ويغرق كل من فيها ولا ينجو منهم أحد. وكان بحّارة الإغريق يتواصون - فيما بينهم - بالابتعاد عن الجزيرة وأن

يضع بَحّارة السفن شمعا فى آذانهم إذا لاحتْ لهم من بعيد، حتى لا يستمعوا إلى أغانى السيرينات ويغرينهم بالاقتراب منهن، وبذلك ينجون من هلاك محقق - كما تزعم الأسطورة - وكان منهم قاب قوسين أو أدنى.

ونزل روما مع رفاقه، وأمضى بها يومين شاهد فيهما أهم معالمها من المتاحف والملاعب، وزار قصر الفاتيكان وجاس خلاله يتأمل فى آيات التصوير والفن الرائعة. فهذا المسيح فى أعلى الباب يعطى سان بيترو مفتاحى الجنة والنار، وعلى يمين الداخل صورة العذراء تضم ابنها المسيح الوليد إلى صدرها، وتتراءى على القبة الكبيرة من الداخل تماثيل بديعة نحتها ميكل أنجلو للمسيح وحوارييه، وفى كل ركن وجانب أعمال كبار الرسامين العالميين من أمثال رافاييل. وطاف بشوارع روما، ورأى أهلها يحتفظون حتى اليوم - بكثير من آثارها القديمة دون أى مساس بها. وشاهد ساحة الأسود التى كان يُلْقى فيها قياصرة روما بمن يريدون لهم موتا رهيبا يمزّقون فيه إِرْبًا إِرْبًا وتجوَّل صاحبى فى روما ورأى بها طائفة من التماثيل، بينها تمثال غاريبالدى موحِّد إيطاليا فى القرن التاسع عشر. ودخل الحىَّ البلدى، ورأى مخبز الفَرَّانة التى كان يغازلها

رافاييل، ورأى على بعض تلال روما - وكانت أقيمت قديما على سبعة تلال - هرما قزما أقيم محاكاة لأهرامات مصر الشامخة. ولاحظ أن حوائط المطاعم تزينها دائما رسوم تاريخية، وأن النُّدُل (الجرسونات) فى تلك المطاعم يلبسون ملابس الرومان العتيقة.

وغادر صاحبى مع رفاقه فى الوفد روما إلى ڤيينا ونزلها فى المساء وتجوَّل فى بعض شوارعها، وتناول العشاء مع رفاقه فى أحد مطاعمها، وفى الصباح توجَّه معهم إلى المطار ليأخذوا طائرة شرقية تنقلهم إلى رومانيا. واقترب منه أحد المسافرين إلى الغرب وتحدث إليه ولما عرف أنه مصرى سأله عن وجهته مع رفاقه فلما ذكر له أنها رومانيا وروسيا ظهرت على وجهه سمات التعجب، لأن مصر حتى هذا التاريخ لم تكن قد وثَّقت علاقاتها بروسيا والدول التى تدور فى فلكها. ونزل مع رفاقه بوخارست عاصمة رومانيا ووجدوا فى استقبالهم مندوبين عن وزارة الثقافة الرومانية وعن اتحاد الكتَّاب هناك، وصحب هؤلاء المندوبون الوفد إلى فندق أثينا المطل على ميدان الجمهورية والمحفوف بقصور الأسرة الملكية السابقة، وقد استحالت متاحف للجمهور، ليشاهد - تحت بصره - مدى

استغلال تلك الأسرة له.

وفى أول يوم له فى رومانيا زار مع رفاقه وزارة الثقافة الرومانية وتحولوا منها إلى مشاهدة مطبعة الدولة وهى تطبع بعض الصحف وكتب جميع المدارس والمعاهد ومجلات مختلفة للأطفال والعمال والفلاحين ولفتت صاحبى دار حضانة ملحقة بالمطبعة لأطفال العاملات بها، وهى معدة للأطفال إعدادا كاملا، فلكل طفل مهده الخاص وصوانه أو دولابه. وتستقبل الدار الأطفال حين يبلغون من العمر تسعة أشهر، ويظلون بها إلى سن الرابعة، ومنها يلتحقون بمدارس رياض الأطفال. وعادة يأخذ الأمهات العاملات أطفالهن مساء كل يوم أحد، وهو يوم إجازتهن وعطلتهن، ويعدن بهم إلى دار الحضانة صباح يوم الاثنين.

وفى اليوم التالى ذهب مع رفاقه للفرجة على مدينة السينما: وشاهد بها منظرا من «فيلم» كان يُعَدّ للإخراج عنوانه: «القلعة المحطمة» وأعيد المنظر أمامه مرارا، وقالوا إن هذه الإعادة تتكرر أحيانا عشرين مرة. وغادر مدينة السينما إلى قصر ملكى بجوار بوخارست تحوَّل إلى بيت

للأدباء، وفيه يقيم دائما نفر منهم فترة لإنجاز بعض أعمالهم الأدبية، والتقى فيه صاحبى بأديبة متقدمة فى السن، وذكرت أنها تقيم، فى هذا البيت منذ أربعة أشهر، وأنها أنجزت به مسرحية هى السابعة فى إنتاجها الأدبى أو بعبارة أدق فى إنتاجها المسرحى. وفى المساء زار مع رفاقه إدارة المسرح القومى، وسُئِلَ مديره عن المسرحيات التى يقدِّمها المسرح للجمهور هل هى مترجمة أو مؤلفة؟ فقال: إن نسبة الترجمة لا تزال عالية بالقياس إلى التأليف وقال إن الدولة تعنى بتشجيع التأليف باتخاذ بيوت للأدباء ينزلون فيها كالبيت الذى زرتموه، وفيها تقدَّم لهم كل أسباب الراحة أثناء تأليفهم لأعمالهم الأدبية، وبجانب ذلك تكافئهم الدولة مكافآت سخية على ما يُنْجزونه من تلك الأعمال. وذكر أن عندهم معهدا كبيرا للمسرح والسينما يتلقَّى من يمثلون فيها دراسات موحَّدة، وقال: إن الدولة تهتم بالمسرح اهتماما كبيرا لما له من دور مهم فى الثقافة، وذكر أن ثمن تذاكر الدخول فيه لا يرتفع كثيرا عن ثمن تذاكر السينما، لأن المسارح كلها ملك للدولة، وليست مؤسسات تجارية تبغى الربح، وهى لذلك ليست لمجرد التسلية وإنما هى للتثقيف والتهذيب.

وفى اليوم الثالث زار مع رفاقه دار اتحاد الكتّاب، وهى قصر أنيق، فيه يعقد الكتاب اجتماعاتهم وندواتهم، وبه قاعة واسعة لمحاضراتهم ولعرض بعض الأفلام السينمائية، وسئل مُسْتَقْبِلهم عن اتجاهات الأدب عندهم، فقال إنه أدب هادف فى خدمة الثورة ولكنه لا يتنكر لجمال الصياغة، وسُئل عن حركة الترجمة من الآداب العالمية إلى الأدب الرومانى المحلى، فقال إنها نشطة ومتنوعة ومستمرة حتى لا تنقطع صلتهم بالآداب العالمية، وسُئِلَ عن حرية الكاتب عندهم، فقال إنها فى ازدياد، إذ كان لابدّ أن تقيّد بعد الثورة الشيوعية وأن تجند الأقلام لتأييد الثورة.

وتحوّل مع رفاقه من هذه الدار إلى الفرجة على بيت للرواد، وكان قصرا ملكيا، وبه حديقة كبيرة، ويختار له تلاميذ من سنّ التاسعة إلى الرابعة عشرة حيث ينمّون – فى أوقات فراغهم من دورتيهم التعليميتين فى المدارس الصباحية والمسائية – مختلف هواياتهم العلمية والصناعية والفنية مثل صناعة السيارات والنجارة والأشغال اليدوية، ومثل التعرف بدقة على جهاز التليفون وكذلك على جهازى الراديو والتليفزيون، مع القيام ببعض التجارب كيماوية وغير كيماوية.

وبالبيت حجر مختلفة للمكتبة وللموسيقى، ولهواة القصة حجرة خاصة بها مقعد كبير لأديب يجلس عليه ويقص على الناشئة بعض الحكايات القصيرة. وبالبيت أيضا حمام سباحة، وساحة كبيرة للألعاب الرياضية، وبه مسرح فى الهواء الطلق، والمقاعد فيه مستقيمة ومستديرة مثبَّتةٌ وليس لها مسند خلفى، وبالبيت حديقة بها بعض الحيوانات ومزرعة صغيرة لتدريب التلاميذ على زراعة نباتات مختلفة.

وزار مع الوفد المرافق له الأكاديمية الرومانية، وهى - على غرار الأكاديمية الروسية - مكونة من ثمانى شعب، أكثرها للعلوم، وزار أيضا نقابة المعلمين، وعرف أن اشتراك العضوية بها حينئذ واحد فى المائة من المرتب وأن مجلس إدارتها يشارك فى وضع لوائح التعليم ومناهجه، وقالوا إنهم قضوا على الأمية فى رومانيا قضاء مبرما، فسألهم كيف تَّم لهم ذلك؟ قالوا إن جميع أفراد الشعب أسهموا فى ذلك، إذ فُرض على كل قارئ أن يعلم واحدا أو اثنين من أفراد الشعب، كما فرض على جميع النقابات والمؤسسات والهيئات أن تتولى كل منها مكافحة الأمية بين جميع المنتمين إليها، وبذلك تخلصت البلاد من الأمية نهائيا.

وشدَّ الرَّحال مع رفاقه إلى مدينة «كلوش» بمنطقة ترنسلفانيا فى الشمال الغربى لرومانيا، وهى مركز ثقافى مهم، وبها جامعتان، ونصف سكانها من الرومان والنصف الثانى من المجر، وبها أقلية ألمانية. وشاهد هو ورفاقه بها حديقة نباتات وأشجار تحتل نحو عشرين فدانا وهى مقسمة إلى مناطق بحسب النباتات محلية وعالمية، ودخل حوضا للنباتات الحارة كانت درجة الحرارة فيه مرتفعة جدا. وزار فى نفس المدينة متحف الأجناس، وهو يضم نماذج من آلات الزراعة والصيد، كما يضم أوانى منزلية وأدوات نسيج وصناعات صغيرة سوى ملابس الجنسيات المختلفة فى كلوش. وقضى المساء فى المسرح القومى، وكان برنامجه فكاهيا غنائيا، وكانت المشاهد فيه تدور على نقد ساخر للإدارات المشرفة على شئون الجمهور وعلى مَرافق المدينة. وتتعاقب المشاهد، وفى أحدها أناس يشكون من الروتين الحكومى وتعطيله لمصالح الشعب، وفى مشهد ثان يجرى حوار بين تلميذ وتلميذة، وتسأل التلميذة صاحبها عن عدد الصحارى الموجودة فى العالم، فيعدد لها بعض الصحارى، ويضيف إليها شارع مولوتوف أحد شوارع المدينة، ويقول لها: إنه يدخل فى عداد

صحارى لأن الإدارة المحلية لا تُعْنَى بغرس الأشجار فيه
لا بتزيين أرصفته. وفى مشهد ثالث يسخر أحد المواطنين من
لنظام النيابى عندهم وما يجرى فيه من معارك انتخابية،
حيث يسرف المرشّحون فى الوعود للجماهير حتى إذا نجحوا
م يحققوا لها شيئا مما وعدوها به. وفى مشهد رابع يظهر ملك
قديم للمدينة من ملوك عصر النهضة يسمى ماتياس، وكان
مجريا، واشتهر بأنه كان مصلحا، وله فى المدينة تمثال، ويُرَى فى
المشهد نازلا عن تمثاله لينبّه الجمهور إلى بطء الإدارة المحلية
فى تنفيذ المشروعات الضرورية للمدينة، ويتوارى عن
المسرح قليلا، ثم يعود وقد شهر سيفه فى يده معلنا أنه سيقطع
به رقاب المسئولين إذا لم يسرعوا فى تنفيذ تلك المشروعات.

وفى الصباح رافق وكيل المجلس الشعبى صاحبى وزملاءه
إلى المكتبة العامة، وهى أيضا مكتبة الجامعة، وقال إن بها
مليونا ونصفا من الكتب، وبها للقراءة والاطلاع سبع صالات
تشتمل على ٦٥٠ مقعدا، وبها مخطوطات قديمة كثيرة، وقال
إنها تبلغ خمسة آلاف مخطوط، منها خمسمائة مخطوط عربى.
وانطلق مع رفاقه بعد زيارة المكتبة العامة لزيارة المجلس
الشعبى حيث كان ينتظرهم بعض أعضاء اللجنة التنفيذية

لمقاطعة كلوش وبعض الكتاب والصحفيين والأساتذ
الجامعيين وكان بينهم أستاذ القانون الدستورى فى الجامعة
وسُئل عن نظام القبول للجامعة، فقال: إن الطلبة عاد
يؤدون امتحانا للقبول فى أربعة مواد، فمثلا فى كلية الحقوق
يمتحن الطلبة قبل التحاقهم بها فى اللغتين الرومانية والروسية
وفى تاريخ رومانيا وفى الدستور الرومانى. وقبل التحاق
الطلاب بكلية الآداب يؤدون امتحانا فى اللغتين السالفتين وفى
تاريخ رومانيا وأيضا امتحانا فى مادة التخصص.

وعاد ورفاقه إلى بوخارست، وزاروا بها معهد الفولكلور
أو الفنون الشعبية، واستقبلهم مديره، وهو أستاذ كرسى
الموسيقى فيه حينئذ وسُئل عن تاريخ المعهد، فقال إنه تأسس
سنة ١٩٤٩ وكانت عنايته أولا منصبة على تسجيل القطع
الغنائية، وقال إن به منها محفوظات نفيسة كانت لدى جمعية
المؤلفين الموسيقيين منذ سنة ١٩٢٨. ثم قال: إن المعهد وسَّع
اختصاصه، فلم يقتصر على الأغانى الشعبية، بل ضمَّ إليها
الأدب والرقص الشعبيين، وذكر أن المعهد به (حينئذ) ستون
ألف قطعة شعبية: وقال: عادة تسجَّل القطع الغنائية الشعبية
على أشرطة أو على أسطوانات. أما الرقص الشعبى فيسجل

على أفلام، وقد يُسْتَخدم الرسم لتسجيل الأوضاع فيه. وذكر المدير أن المعهد ليس فيه دراسة، وإنما فيه مجموعة كبيرة من المسجِّلين مختلفى التخصص فى الفنون المتنوعة. وقال إن المسجِّلين يذهبون عادة إلى الحفلات والأعراس لتسجيلها كما يذهبون إلى المآتم والجنازات، وإذا سجَّلوا حَفْلًا سجلوه بكل ما فيه من موسيقى وأغانٍ ورقصات، ولكل أغنية بطاقة توضح مضمونها، وهل غُنِّيت أو مُثِّلتْ أو اقترنت برقص؟ وأين تعلمها منشدها؟ ومتى سمعها؟. ولكل صاحب أغنية بطاقة تشتمل على الاسم والعمر والوضع الاجتماعى وعمَّن أخذها وتلقَّاها، وإذا سبق له سماعها من أكثر من مغن أو منشد سُجِّل ذلك فى البطاقة وحدَّد مكان سماعه لها وزمانه. وتدوَّن مع كل أغنية العبارة الموسيقية الأولى ويدوَّن الرَّقيم الموسيقى (النوتة الموسيقية) الذى يصحبها كلما أمكن ذلك. وسئل مدير المعهد كيف تتأكدون من أن الأغنية شعبية؟ فقال إن المعهد لا يسجِّل إلا ما غناه الشعب وأصبح فعلا من تراثه، وقال إن المسجل للأغنيات حين يذهب إلى إحدى القرى ليسجل بعض أغانيها الشعبية يجتمع له أهلها ويغنى المغنى - أو المغنية - أمامهم ليشهدوا بأن الأغنية شعبية،

وبذلك يكون الشعب رقيبا على تراثه. وقال المدير: إنه يوجد فى القرى عادة مغنيات ونائحات. وأسمعهم أغنية مرحة لشيخ يقول فيها: «ليتنى أتحوَّل إلى لعبة خشبية تتقاذفها بعض الشابات، وإنى لأحسد الشبان العُزَّاب لأنهم يمرحون دائما مع الفتيات، وإنى لشيخ ومع ذلك نحن الشيوخ تستهوينا التفاحات الجميلات». وقال المدير إن للمعهد مجلة تنشر ما يسجل من أغان ورقصات شعبية، وتصدر المجلة أربع مرات فى السنة، فهى مجلة فصلية، وقال إن فى المعهد قاعة قراءة وقاعة استماع، ودائما المسجلات الصوتية تحت تصرف الزائرين لسماع ما يريدون من غناء وموسيقى شعبيين. وذكر أن بالمعهد فهارس لكل فن من الفنون الشعبية، وأضاف أنهم يهتمون بالفنون الشعبية الخاصة بالأقليات مثل الصِّرْب والألمان والمجر والتتار والترك، وكانت بالمعهد حينئذ فتاة تركية من كونستانزا تغنى أغانى تركية شعبية، وكانوا يسجلونها لها على أسطوانات.

وشاهد بجوار بوخارست متحف القرى، وهو متحف تاريخى لقرى رومانيا، به مجموعة كبيرة من المنازل الخشبية الأثرية نقلت من مواطنها، وأقيمت - فى هذا المتحف -

كما كانت بنفس صورتها وهيئتها، وكل منزل فيها يمثّل بيئة من بيئات رومانيا. وأول منزل زاره منزل بُنى سنة ١٧٨٠، وحوله سوره وهو من خشب البلوط، والمنزل مؤلف من غرفتين بينهما ردهة أو صالة، وكل ما كان به من أدوات لا يزال موجودا مثل أدوات النسيج ومغزله، وبين الأدوات مصباح يماثل «لمبة الجاز» التى كانت معروفة فى القرى المصرية إلى عهد قريب. وجميع الأوانى مزخرفة، وبالمنزل مهد لطفل مشدود ببعض الحبال، وبه مجموعة من الثياب بينها ملابس للنساء واسعة جدا سواء الداخلية كالقمصان، أو الخارجية كالبنطلونات والسراويل، وكانت المرأة تلبس فى الشتاء «حرملة» منسوجة من صوف أو من وبر الغنم، وبالمنزل قدور مختلفة وميزان وعقد التملك، وبجوار المنزل بئر، وهو يمثّل بيئة الغابات الشمالية. ودخل منزلا ثانيا من جنوبى ترنسلفانيا لراعى غنم وبه سرير ومجموعة من عصىٍّ المغازل وحزام للراعى من جلد عريض ومجموعة من ملابس الرعاة التقليدية فى ترنسلفانيا. وتحوَّل إلى منزل ثالث من جنوب جبال الكربات بُنى سنة ١٨٧٥ واسم صاحبه مكتوب على الحائط الخارجى بجانب الباب على ارتفاع غير قليل من

الأرض، وقد زُخرفت أعمدة المنزل وأخشابه الخارجية زخرفة بديعة، وفى ردهة المنزل مدخنة وأصونة أو دواليب وقدور مزخرفة وحجرة للنوم وحجرة للضيوف وملابس مزركشة. وزركشة الملابس مشهورة فى هذه البيئة من قديم، أشاد بها هوميروس، إذ كان يعجب بتطريز نساء تراقية للثياب، ومعروف أن تلك المنطقة التى تشغلها رومانيا الآن استعمرها اليونان والرومان قديما.

وركب مع رفاقه الطائرة من بوخارست إلى كونستانزا على البحر الأسود، ونزلوا فى فندق كبير على شاطئ ماميا، على بعد تسعة كيلو مترات من كونستانزا، وفى طريقهم إليها استوقفهم تمثال للشاعر اللاتينى: «أوفيد» الذى نفاه الرومان إلى تلك المقاطعة، وقد كتب على قاعدة تمثاله: «هنا يرقد شاعر الحب والشباب: عبقرية خالدة، كان يسمى أوفيد ذا الأنف الأشم، وحرىّ بك أيها المارّ الذى عرف الحب أن تدعو له: أن يخفف الثَّرى وطأته عليه، وتحت هذه الأبيات مصدرها وهو الجزء الثالث من ديوانه: «الأحزان». وكان أوفيد يعيش فى القرن الأول قبل الميلاد، وكانت «كونستانزا» حينئذ تسمَّى توميس، وتَغنَّى أوفيد طويلا بالحنين إلى وطنه.

وزار مع رفاقه مزرعتين بجوار كونستانزا إحداهما حكومية وتسمى: «سوف خوز» والثانية تعاونية وتسمى: «كولْ خوز». وسأل صاحبى المرافق لهم عن أى المزرعتين إنتاجها أكثر، فقال إن إنتاج المزرعة الجماعية أكثر، لأن الفلاح فيها لا يأخذ أجرا من الدولة مثل الفلاح فى المزرعة الحكومية، إنما يأخذ نسبة من المحصول الذى يحصده، وهى تقدَّر بحسب وحدات عمله وإنتاجه، مما يدفعه إلى زيادة كدِّه وكدحه فى العمل،وبالتالى يزيد إنتاجه وتزيد نسبته منه تبعا لذلك. وسُئل عن النظام فى المزارع التعاونية، فقال إن الفلاحين فيها أربعة أنواع: أجير وكبير وصغير ومتوسط، والتوسط والصغر والكبر بحسب القطعة التى يزرعها الفلاح ومقدار مساحتها بالهكتار، وهو عشرة آلاف متر مربع، وتدفع المزرعة للدولة ضريبة محددة عن كل هكتار، وتسدِّد المزرعة أثمان البذور والسماد اللذين أخذتهما من الهيئة الحكومية، كما تسدِّد أجرة الآلات التى استأجرتها من محطة الجرَّارات، وتسعون فى المائة من العمل الزراعى تقريبا آلى. ويُخْصَم من المحصول العام اثنان فى المائة لصندوق الإعانات الخاص بالمسنِّين والعاجزين عن العمل. ويمر بالمزرعة طبيب بيطرى،

وبالقرب منها مستشفى صغير لرعاية الفلاحين صحيا، وبها مدرسة أولية لتعليم الناشئة، وبها أيضا معمل للَّبَن. والمزرعة الجماعية - بذلك كله - أشبه بقرية. وذكر المرافق أن مساحة المزرعة الجماعية التى زاروها تسعمائة وخمسة وأربعون هكتارا، وكان بها حينئذ نحو تسعين أسرة. وأمضوا فى كونستانزا يومين وعادوا إلى بوخارست.

٤

وفى اليوم الثانى من أكتوبر انتهت زيارة صاحبى ورفاقه لرومانيا وبارحوها إلى موسكو، ونزلوا فى فندق مسمّى باسمها، وفى اليوم التالى ذهبوا إلى اتحاد الكتاب، وأُخذت لهم فيه صور بجانب تمثال تولستوى، ولقيهم نائب سكرتير الاتحاد الخاص بالتبادل الثقافى، ورحب بهم، وعرَّفهم بأمناء الشُّعَب المختلفة للاتحاد، وسرعان ما جاء سيمانوف القائم بأعمال الأمين العام للاتحاد، وأخذ يشرح لهم تكوين الاتحاد ووظيفته، وذكر لهم أن الكاتب فى الاتحاد يشمل الشاعر والقصاص والمسرحى وكاتب السيناريو والناقد والمترجم، وقال إن للاتحاد مجلات ودور نشر خاصة، ويخصم للاتحاد من دخل كل كاتب عشرة فى المائة، ويبلغ عدد أعضائه (حينئذ) نحو أربعة آلاف يكتبون بالروسية أو بلغاتهم القومية المحلية،

وذكر أن كل جمهورية فى الاتحاد السوفيتى يدرس تلاميدها لغتين: اللغة المحلية واللغة الروسية، وقال إن فى كل جمهورية اتحادا فرعيا للاتحاد العام وينوب عنه فيه ممثل ينتخبه أعضاء الاتحاد الفرعى. وذكر أن للاتحاد لجنة مركزية مؤلفة من مائة وثلاثين كاتبا ينتخبون من بينهم مجلسا للرياسة يضم أربعين كاتبا يختارون كل أربع سنوات. ووظيفة الاتحاد القيام على أعمال الكتاب وتيسير مصايف وبيوت راحة واستشفاء ومساكن جماعية لهم، ولا يُقْبَل فى الاتحاد إلا من كانت له مؤلفات مطبوعة ذات قيمة أدبية أو ثقافية، وتبحث طلبه اللجنةُ المركزية، وهى التى تقرر قبوله أو رفضه. وفى المساء شاهدوا أوبرا روسية لتشايكوفسكى، نظم أشعارها بوشكين، وهو عند الروس مثل شوقى فى مصر لعذوبة لغته.

وفى اليوم الثالث زار مع رفاقه معهد اللغات الشرقية، ورحب بهم أساتذته المشرفون على الدراسات فيه، وحدثوهم عن نشاطهم ونشاط أسلافهم فى ترجمة كثير من الكتب العربية القديمة والحديثة وكثير من الأشعار والأقاصيص، وأروهم ترجمة لكليلة ودمنة ولألف ليلة وليلة ولثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعى ومجموعتين من الشعر المصرى

ـديث والأقاصيص المصرية المعاصرة. وتناقش الأساتذة
ـعض الطلاب معهم فى بحوث لهم تتصل بالأدب المصرى فى
ـغتين: الفصحى والعامية، وأكد لهم أن الفصحى ستظفر
ـعامية وتقضى عليها مهما طال الزمن
وفى يوم الجمعة صلّوا الجمعة فى مسجد للتتار العاملين
ـسكو وبمجرد أن دخلوا فيه وعرفوا أنهم مصريون فسحوا
فى الطريق للصلاة بجانب المنبر، وكان واعظ يلقى
ـعظة باللغة الأوزبكية، ثم نهض الخطيب فافتتح خطبته
ـولى بحمد الله والصلاة على رسوله الكريم، وتلا آيات من
ـكر الحكيم وبعض الأحاديث النبوية، ثم أخذ يشرح
ـيات القرآنية والأحاديث النبوية باللغة الأوزبكية ليفهمه
ـمعوه، والخطبة الثانية كانت عربية خالصة، وكذلك كانت
ـلاة وصلى التتار المصلون ركعات السنة، ثم تلا مقرئ
ـت وسورا قصيرة من القرآن. وأقبل الخطيب على صاحبى
ـاقه، فصافحهم، وهو أوزبكى ويجيد العربية، ووقف
ـلون فى صفين متقابلين يحيونهم بتحية الاسلام: السلام
ـكم، ولم يُسَرّ صاحبى بشىء فى رحلته إلى رومانيا وروسيا
سرّ بصلاته الجمعة فى مسجد التتار بموسكو، فهؤلاء

المسلمون يهتفون: الله أكبر، فى قلعة الشيوعية وعُقْر دارهـ
وكانوا يضعون أيديهم على ملابس إخوانهم المصريين الذيـ
جاءوهم من جوار الحجاز ومدينتيه المقدستين، وكأنـ
يلتمسون البركة.

وفى اليوم التالى حضروا باليه «كابيليا» وهو فى ثلا
فصول، وفى فصله الأول تظهر الفتاة كابيليا مدلهة بحـ
شاب من جيرانها، وكان بجوار بيتها مثّال تراءى له أ
يعرف مقدار تأثير فنه فى الشباب، فوضع أمام نافذة بالدو
الثانى من منزله تمثالا لفتاة رشيقة وبيدها كتاب مفتوح كأ
تقرأ فيه، وظن الشباب وصاحب كابيليا أنها فتاة حقيقيـ
فكانوا يغازلونها ويحاولون تقديم طاقات الورد إليها، وهـ
صامتة لا تجيبهم، ولاحظ المثّال ولوع الشباب وصاحـ
كابيليا بها، فوضع على نافذتها ستارة، فازداد ولوعهم، وكانـ
كابيليا تلاحظهم وتلاحظ صاحبها وتشتد غَيْرتها. وفى الفصـ
الثانى يخرج المثال فى صحبة بعض جيرانه، ويسقط منه مفتا
منزله فى غفلة منه، فتلتقطه كابيليا، وتصعد إلى المنزل ـ
بعض صواحبها محاولين مشاهدة تلك الفتاة، وتعتريهن ألو
من الخوف والفزع فى لقائها وتتجرأ كابيليا وتتقدم إليـ

وتذهل إذ تعرف - ويعرف الفتيات معها - أنها دمية. ويعود المثّال إلى المنزل فتهرب الفتيات ماعدا كابيليا، إذ لا تعرف كيف تهرب، وتصارح المثّال بحقيقة الأمر، وفيما هى تحدثه ترى صاحبها صاعدا على سلم من الخارج وبيده صحبة ورد ليقدمها إلى صاحبة التمثال. ويجلس المثال كابيليا مكان الدمية، وبعد طائفة من المفارقات قدّم الشاب طاقة الورد إلى كابيليا، وعرفها. وطلب منها الصفح، واتفقا معا على الزواج. وفى الفصل الثالث يعقد الشاب قرانه على كابيليا ويدخلان معا الكنيسة، وفى يده طاقة من الورود، ويدخل معهما عروسان، وتخرج كابيليا بعد العقد مبتهجة بزواجها، وترقص ويرقص معها نفر من الشباب، ويدوران على المسرح راقصين دورات كثيرة معبرين عن فرحهما، ويرقص مثلهما العروسان الآخران ويرقص فتيات وفتيان كثيرون، وينتهى الباليه.

ولم تَخْلُ ليلة لصاحبى ورفاقه فى موسكو من فرجة على باليه أو مسرحية، ومن طريف ما شاهدوه مسرحية مُثلت على مسرح العرائس، وكان موضوعها الغيرة، وتتألف من ستة فصول تتخللها استراحتان، وفيها تتعدد المشاهد، وتتحرك الشخوص على خشبة المسرح مستعينين على إخفاء محركيها

الذين تنطق بألسنتهم بستار قصير على المسرح يرتفع عنه نحو متر أو أكثر، وبذلك تصبح الدمى وكأنها شخوص حقيقية. والستارة الأمامية ترفع فى الفصل الأول، فنرى زوجين شابين يذاكران فى شقتهما استعدادًا لامتحان آخر العام فى الجامعة، ومن حين إلى حين يقترب الزوج من زوجته يريد أن يقبِّلها، فتقول له متلطفة: دَعْ ذلك الآن حتى نفرغ من الامتحان والمذاكرة، ودائما تَصُكُّ آذان الزوجين الشابين ألفاظ شجار بين زوجين يسكنان بجوارهما، كثيرا ما كان الخلاف يدبّ بينهما وتقول الزوجة الشابة لزوجها: استمع إلى هذين وكيف يعيشان سويا ولا ينفصلان. وكان الجار يغار أشد الغيرة على زوجته، وهى سبب الخلاف والشجار المستمر بينهما. وفى هذه الأثناء تدخل الجارة لتطلب من الزوجة الشابة قليلا من «صبغة اليود» وتقول لها معتذرة: ليس عندها منها شىء إذ لم يحدث لها ولا لزوجها أى جروح، وتعجب الجارة لأنها هى وزوجها كثيرا ما تحدث لهما جروح بسبب شجارهما العنيف. وكان زوج الشابة قد دخل الحمام غير أن الجار ظنَّ أنه لقى زوجته، وعادت زوجته إلى شقتها، فسألها الزوج - والغيرة تأكل نياط قلبه وشررها يتطاير من عينيه - أين

نت؟ وتفتح صوانا أو دولابا وتختبئ فيه خوفا منه، وينطح
صوان برأسه مرارًا. وتخرج منه زوجته ويتشاجران. وتفكر
زوجة الشابة فى زوجها وأنه لا يغار عليها، وتخترع فِرْيةً
نصُّها عليه كى تنعم بغيرته مثل نعيم جارتها بما يظهره لها
وجها من غيرة، ويخرج زوج الشابة من الحمَّام فتقول له
اذبة عليه: سأقص عليك أمرًا ولا تغضب، ثم تذكر له أنه
ين تركها فى صيف العام الماضى لمدة شهر ونصف تعرَّفت
لى شاب وقبَّلها، فيقول لها: لا بأس، فتردف قائلة: قبَّلنى
رارا . حينئذ يغضب زوجها الشاب، ويدير صوان الملابس
، الحجرة، حتى يقسمها بينهما قسمين، وهو فى أثناء ذلك
ذرها ويتوعدها بأنها لن تراه أبدا. وتقول له: إذن نقسم
كتب. ويحاول أن يأخذ دواوين الشاعر بوشكين، فتقول له:
لا أعمال بوشكين لى وحدى ويسألها عن اسم من أحبَّته،
تذكر له اسما خياليا. وتستدل ستارة المسرح الأمامية، فى هذا
لوقف الحرج. وفى الفصل الثانى يتراءى عامل تصادف أن
سمه نفس اسم الحبيب المزعوم، كان ينتظر زوجته للفرجة
لى «سيرك» وتقبل زوجته وتصادف أيضا أن كان اسمها
وليا نفس اسم الزوجة الشابَّة. ويدخلان السيرك، وكان قد

سبقهما إليه الزوجان الشابان. وما يلبث الزوج الشاب أن
يسمع زوجة العامل تناديه باسمه، فيتبادر إليه خطأ أنه عشيق
زوجته المزعوم، ويغضب ويتركها ويخرج منفعلا. ويرفع
الستار فى الفصل الثالث عن حديقة بها شيخ كبير كان
مدرسا، وكانت معه زوجته، وضلّ كل منهما صاحبه. ويتراءى
فى جانب من الحديقة كهل مخمور يلتقى بزوجة المدرس
الضالّة. وفى ركن من الحديقة تظهر الزوجة الشابّة باحثة عن
زوجها الغاضب ويراها الشيخ الكبير الضال فيقترب منها
ويسألها: ما شأنها؟ ويسير وراءها فيطآن بعض الأزهار
والحشائش وتراهما حارسة الحديقة، فتنفخ فى بوقها ويحضر
شرطى، ويأخذهما إلى مركز الشرطة. وفى الفصل الرابع
نراهما فى المركز ويخرجان، وتدخل سيدة ضامّة إلى صدرها
رضيعا وجارّة معها طفلا، وتذكر أن زوجها هارب ممن طلبوه
للتجنيد وأن لها ابنا ضلّته فى الحديقة، ويقول لها الضابط فى
المركز: إنه سيخبر الإذاعة عن زوجها الهارب وابنها الضال
حتى تذيع نشرة عنهما لعل أحدا ينبئها بخبرهما. وتدخل
امرأة الشيخ الضال تسأل عن زوجها، ويقول لها الضابط
سأبلغ عنه الإذاعة. ويعود المشهد فى الفصل الخامس إلى

لحديقة، ويتراءى فيها الزوج الشاب الغيور وزوجته يسألان
ولد الصغير الضالّ عن باب الخروج من الحديقة وكانت
كتظّة بالأعمدة فيقول لهما: لن أدلكما عليه إلا إذا أعطيتمانى
ن النقود ما أشترى به تذكرة لدخول السينما، ويعطف عليه
زوج ويعطيه بعض ما سأل. ويلتقى الولد الضال بأبيه
يهرب منه، ويتبين أن الأب هو الرجل المخمور السابق
كره. ولا تزال زوجة الشيخ المدرس تبحث عن زوجها
تلتقى بالولد الضال وتسأله عن باب الخروج من الحديقة،
يطلب منها بعض النقود ليدلها عليه فتنهره. وفى الفصل
سادس يلتقى الشيخ المدرس بزوجته ويظهر الزوجان
لشابان وتقول زوجة المدرس الشيخ لزوجها، وقد رأت
لزوجة الشابة: أهذه هى الفتاة التى أحببتها؟ وماذا فيها
تى تحبها وتتركنى؟ لابد أنها تحسن طهى الطعام خيرا منى،
يظهر العامل وزوجته، وكانت قد غضبت، لأنها رأت الزوج
لشاب يتهمه بحب زوجته الشابة. وتعود إلى الزوج الشاب
مّى الغيرة، فيقبل عليه المحبوب الوهمى ويقنعه بأنه
لا علاقة له بزوجته. ويقبل الشيخ المدرس على الزوجين
لشابين موجها إليهما الحديث قائلا: إن الحياة مليئة

بالصعاب، ولابد أن تتعاونا فيها ويساعد كل منكما صاحبه في
عبورها، وتعجب به زوجته لحكمته وحصافته. ويقبل كل زوج
على زوجته راضيا باسما. وبذلك تنتهى المسرحية التى مثلته
دُمىً كأنها شخوص حقيقية.

وزار مع رفاقه بعض المدارس فى موسكو، ورآهم في
مدارس الأطفال يهتمون بتعليمهم بعض الأشغال اليدوية
وبعد السنوات الأربع الأولى يختلف التلاميذ إلى ورش
محدودة لتعليمهم بعض أوليات الصناعة والزراعة، حتى إذ
أصبحوا فى المدارس الثانوية وجدوا بها «ورشا» تطبيقية للنجار
والحدادة والميكانيكا والكهرباء، وتلحق بالمدرسة قطعة صغيرة
من الأرض لتدريب من يرغب من التلاميذ فى معرفة كيفية
الزراعة. وبذلك يُعَدّ التلاميذ إعدادا فنيا ليكونوا نافعين
لأنفسهم فى البيت وفى الحياة إذ لا يخرجون من التعليم
الثانوى إلا وقد عرفوا كيف يسوقون السيارات، وتعرّفو
على أجزائها حتى يمكنهم أن يصلحوا أى عطل فيها، وأيض
على أجزاء الراديو والتليفزيون وتركيبها جميعا حتى يصلحو
ما قد يصيب أحدها من خلل.

ومن أطرف ما يشاهد فى موسكو المعرض الزراعى

الصناعى، وهو يشغل مساحة كبيرة، وبوسطه نافورة ضخمة تمثل جمهوريات الاتحاد السوفيتى السبع عشرة، إذ لكل جمهورية تمثال لفتاة منها بملابس جمهوريتها الوطنية، ولكل جمهورية دار عرض خاصة بمنتوجاتها المتنوعة. وهى تمثل جمهوريتها أيضًا بشكل بنائها وما يقام أمامها من أعمدة وعلى واجهتها من تماثيل، وتتميز أبواب الجمهوريات الإسلامية بأنها تشبه أبواب المساجد وما ترصَّع به من بعض الزخارف، ودائما على الحيطان الداخلية لدور العرض صور لأبناء الجمهورية الخاصة بها بملابسهم الوطنية، وفى داخل كل دار خريطة مجسمة لمنتجات جمهوريتها ونماذج مصغرة لمصنوعاتها ومنتوجاتها من حبوب وثمار وفواكه، ومع كل نوع منها لوحة بنسبة إنتاجه فى حقله، وهنا وهناك حيوانات الجمهورية الداجنة محنطة.

وزاروا الكرملين، ورأوا أمامه ساحة واسعة جدا، ويمتد حوله سور به أضرحة لزعماء روسيا، وعلى ظاهره من الخارج شواهد بأسماء الشخصيات المدفونة بجواره. وبناء الكرملين مقسوم ثلاثة أقسام: قسم للمتحف، وقسم لمجلس السوفيت الأعلى واللجنة المركزية، وقسم لدوائر الحكومة،

وقد بدأ الروس بناءه فى القرن الحادى عشر، وظلوا يضيفون إليه ملاحق جديدة حتى القرن الخامس عشر الميلادى. وعلى السور أبراج ذات رءوس تشبه المسلات بُنيت قديما للحراسة. وللكرملين مدخلان كبيران أحدهما للسيارات والثانى للمارة، ودخل مع رفاقه المتحف، وهو مكوَّن من دورين: أعلى وأسفل، وصعد إلى الدور الأعلى على سلم عريض من الرخام، ورأى فى أعلاه مرآتين كبيرتين مزينتين بالتماثيل، كما رأى ساعة كبيرة على مقعد مزخرف.. وكان أول ما شاهده فى هذا الدور دروع الفرسان النحاسية وغير النحاسية، ورأى خوذة - خالها تركية - كُتب فى أعلاها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وكُتبت فى وسطها آية الكرسى فى شكل دائرى. وشاهد كثيرا من أسلحة القرون الماضية: سيوفا وغير سيوف، مقابضها محلاة بالجواهر، كما شاهد قسما خاصا بالساعات، وقسما خاصا بثياب رجال الكنائس المزركشة وبالكتب المقدسة مرصَّعة بالجواهر واللآلئ، ومعها صور للعذراء وابنها ولبعض القِدِّيسين. ويزخر هذا الدور العلوى بأوان لا حصر لها ذهبية وفضية وبعضها مهدى من الدول إلى القياصرة حملها إليهم سفراؤها، وتمتد التواريخ على التحف ابتداء من القرن

الخامس عشر الميلادى. وكأنه لم يضع شىء مما كان فى قصور القياصرة أثناء الثورة الروسية الدامية. وتكثر الشمعدانات والتماثيل المتخذة من سن الفيل للأسد والصقور، وفى ركن من هذا الدور أوانى بطرس الأكبر الذهبية.. وشاهد فى الدور الأسفل ملابس القياصرة ونسائهم وفتياتهم محلاة بالذهب والفضة ومجموعة من كراسى العرش القيصرى، وهى مذهبة، وعلى بعضها تيجان مرصَّعة بالجواهر، وبينها عرش إيڤان الرهيب فى القرن السادس عشر وعرش بطرس الأكبر، كما شاهد مجموعة كبيرة من عربات القياصرة منسوبة إلى من كان يركبها منهم أو من نسائهم، محلاة بالتماثيل ورسومات الأزهار، وبينها عربة كبيرة يجرها ستة من الخيول مجسمة أهداها الملك فريدريك الثانى الألمانى إلى بنت بطرس الأكبر، وهو أول من ترك الكرملين إلى لييننجراد، ولذلك كانت تسمى قبل الثورة الشيوعية «بطرسبرج» وقد أحال الكرملين إلى متحف ومركز للأداة الحكومية فى موسكو. وعلى هذا النحو يحتفظ متحف الكرملين بتراث القياصرة على مر الزمن.

وكانت فرصة ممتعة له أن ركب الطائرة مع رفاقه لرؤية «طشقند» حاضرة أوزبكستان الجمهورية الإسلامية فى

أواسط آسيا، واستغرقت الرحلة إليها أربع عشرة ساعة تخللتها استراحات قصيرة للطعام أو للراحة فى أحد المطارات. ونزلوا طشقند، وفى اليوم التالى حضروا مؤتمر المثقفين، وحيَّاهم الخطباء، وعرفوا أن عدد سكان المدينة - حينئذ - كان نحو المليون منهم عشرين فى المائة من الروس. وزار مكتبة معهد العلوم الشرقية، وسألوا القائمين عليها عن أهم المخطوطات العربية عندهم، وأطلعوهم على مخطوطة قيمة للجزء الأخير من كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه تبتدئ بسنة أربعمائة، وقد كتبت سنة ٥٩١ للهجرة.

وصلُّوا الجمعة فى أكبر مساجد طشقند، وكان غاصا بالمصلين، واستقبلهم الإمام بعد الصلاة، وهو مفتى أوزبكستان، وذكر لهم أنه تعلم بديار الشام، وقال إن هذا المسجد تُلحق به مدرسة دينية، وسألوه: هل نستطيع زيارتها؟ فقال: إن مدرسيها وطلبتها مشغولون الآن بجمع القطن، وطلب صاحبى منه الاطلاع على برامج تلك المدرسة، فانتقل معه ومع رفاقه إليها، واطلع على تلك البرامج، فرآها تشتمل على العلوم الدينية واللغوية والدستور الأوزبكى وعلى اللغة الروسية، وهى إجبارية فى جميع صور التعليم هناك.

وأوزبكستان - كما مرَّ بنا - جمهورية إسلامية، والزواج عندهم يتم بين العروسين المسلمين بعقد مدنى، ثم يُدْعَى شيخ إلى البيت، ويعقد القران على الطريقة الشرعية الإسلامية. وطلب صاحبى زيارة قبر ابن القفال الفقيه المشهور الذى نشر مذهب الإمام الشافعى فى تلك الديار، وكانت تسمى قديما بلاد ما وراء النهر أو بلاد الشاش، ورأى مقبرة ابن القفال فى زاوية صغيرة عارية من الحُصْر وأمامها زير ماء، وقالوا إن أحفاده هم الذين يعنون بالزاوية.

وحضروا فى طشقند استعراضا راقصا، شاهدوا فيه الرقص الأوزبكى المحلى وبعض مناظر تمثيلية، وذكروا لهم هناك أن القُبَل ممنوعة منعا باتًا على خشبة المسرح عندهم، ورأوا دائما النساء والفتيات فى الرقص والتمثيل يلبسن الملابس الوطنية: فساتين واسعة تحتها سراويل طويلة. وتهيِّئ كثرة الحرير عندهم للراقصات والممثلات زركشة ثيابهن، وأكثر الرجال يحافظون على الزىّ القومى. ولا تزال الآلات الموسيقية العتيقة - منذ العصر العباسى - موجودة لديهم: الناى والسرناى، والجنك والعود بأنواعه، والطنبور وأوتاره من الحديد، والجيتار وأوتاره من الجلد. والناى هو نفس مزمار

الغاب القروى المصرى، والسرناى أطول منه. وزار صاحبى بجوار طشقند مزرعة. والمزارع عندهم - مثل مزارع رومانيا والاتحاد السوفيتى عامة - نوعان: حكومية وتعاونية، وقالوا - كما قالوا فى رومانيا - إن المزارع التعاونية أوفر إنتاجا، لأن الزارع فيها يفيد من ثمرة جهده وكدحه، بخلاف المزارع الحكومية فإن الزارع فيها يأخذ راتبا محدَّدا.

وزار مع رفاقه سمرقند، وهى المدينة الثانية فى جمهورية أوزبكستان، وكانت قديما عاصمة تيمورلنك، ولا تزال تغلب عليها الطوابع الشرقية، وشاهد صاحبى فيها مرصد أولغ بك حفيد تيمورلنك الذى أقامه سنة ١٤٢٨ للميلاد. وزار مع زملائه مقابر أسرة تيمورلنك، وهى تصطفُّ على شارع صاعد ممتد إلى ربوة عالية، وشاهد هناك قبر تيمورلنك. وأكثر المساجد الأثرية فى المدينة تهاوت إلا بقايا قليلة: حوائط أو بعض السقوف والقباب بسبب كثرة الزلازل فى المنطقة، والحيطان الباقية فى المساجد مزخرفة بالقيشانى وبكتابة بعض آيات الذكر الحكيم. وكان عدد سمرقند - حينئذ - نحو مائتى ألف، بينهم ثلاثون فى المائة من الروس وبعض اليهود. وعندهم أنواع النُّقْل المعروفة من اللوز والجوز والفستق

سوى الفواكه وخاصة العنب، ويُعَدّ أجود أنواع العنب فى الاتحاد السوفيتى.

وعاد مع رفاقه إلى موسكو فى منتصف أكتوبر، وزاروا كثيرا من المتاحف بينها متحف لينين، وهو يضم ثلاثا وعشرين حجرة فى دورين، وتمتلئ الحجر بصوره وبمقالاته وعمله للثورة منذ سنة ١٨٩٣ ومؤلفاته على مر السنين وجميع خطوات حياته وتنقلاته فى أوربا ورحلته إلى أمريكا وكل كبيرة وصغيرة تتصل به وبأسرته وأبويه وإخوته. ودعت صاحبى ورفاقه مكتبة الآداب الأجنبية لقضاء أمسية بها يلتقون فيها بطلاب معهد اللغات الشرقية والمعنيين بالأدب العربى الحديث، وقد تحدثوا أمام الإذاعة عن الأدب المصرى المعاصر، وكان الموضوع الذى تحدث فيه: «مركز الأدب المصرى بين الآداب العربية». ولم تكن تمر ليلة بموسكو إلا ويختلف فيها إلى أوبرا أو مسرحية، من ذلك أوبرا زواج فيجارو لموزار، وقد وضع قصتها قبيل الثورة الفرنسية بومارشيه، وأدخل المخرج الروسى على الأوبرا بعض التغييرات.

وزار مع رفاقه مدينة «ستالينجَراد» التى صمدت للألمان،

وكان صمودها مؤذنا بهزيمتهم فى الحرب العالمية الثانية، وقد أمضى بها يومين، شاهد فيهما بعض المصانع وبعض المتاحف، كما شاهد فيلما يصور مقاومة المدينة الباسلة للألمان وبدأت المقاومة من تل منسوب إلى ماماى حفيد جنكيز خان، وكان يتخذ مدينة سراى على نهر الفولجا عاصمة له، وهى تبعد عن ستالينجراد نحو ثلاثين كيلومترا، واندثرت الآن تماما، وكانت موسكو تؤدى للتتار إتاوات سنوية حتى القرن الحادى عشر الميلادى. وعادوا إلى موسكو، ومنها ركبوا قطارا إلى «لينجراد» وبها شاهدوا تمثال بطرس الأكبر أمام نهر نيفا، ومن حوله قصور باذخة، منها قصر الشتاء الذى أعلن منه لينين الثورة الشيوعية، وهو يموج بمخلفات القياصرة من فرش وسجاجيد وتماثيل وهو متحف ضخم تكثر قاعاته، وما بها من نجف ومن صوز لكبار الرسامين الإيطاليين أمثال دافنشى ورافاييل وميكل أنجلو وغيرهم من رسامى النهضة الإيطالية.. سوى كثير من الآنية المذهبة وطقوم الشاى والقهوة والساعات الفضية المذهبة، وسوى قاعة العرش لبطرس الأكبر وهى من المرمر ورءوس أعمدتها من الذهب وكذلك نجفها، وبها خارطة كبيرة لروسيا مليئة بالأحجار

لكريمة لبيان طبيعة البلاد. وزاروا مكتبة ليننجراد، وهى مكتبة ضخمة وتزخر بمخطوطات عربية كثيرة. والتقوا فيها بزوجة كراتشكوفسكى أكبر مستشرقى الروس فى العصر الحديث، أحضروها للقائهم، وتحدثوا معها عن زوجها واهتماماته بدراسة الأدب العربى وبعلماء الجغرافيا من العرب، وعادوا إلى موسكو، وزاروا الجامعة ومبناها الفخم المؤلف من نحو ثلاثين طابقا.

٥

انتهت زيارة صاحبى ورفاقه للاتحاد السوفيتى فى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر وركبوا طائرة روسية إلى كوبنهاجن، وباتوا بها. وفى الصباح طافوا ببعض شوارع المدينة ثم ذهبوا إلى المطار ليأخذوا طريقهم إلى الوطن، فقيل لهم: اختاروا أى بلد عربى آخر، فإن مصر أغلقت مطاراتها وموانيها لنشوب حرب بينها وبين إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، واختار اثنان منهم ليبيا، واختار ثلاثة - بينهم صاحبى - بيروت. ونزلها فى اليوم الثانى من أيام العدوان الثلاثى الغادر، ونزل فى فندق متواضع، ووجد مصريين كثيرين اضطروا إلى النزول مثله فى بيروت. وكانوا جميعا يلتصقون بالإذاعات وقلوبهم معلقة بمصر وبمقاومتها الباسلة لأساطيل إنجلترا وفرنسا وتابعتها إسرائيل، وكانوا يريدون تطويق الجيش

المصرى فى سيناء، فأمرته القيادة بالانسحاب إلى القناة محبطة خطتهم، وتحولت مصر إلى ما يشبه معسكرا حربيا إذ حمل السلاح كل فرد فيها يريد أن يفدى الوطن بدمه وروحه. واستماتت بورسعيد فى القتال وأبادت غير فوج من أفواج المظلات الإنجليز حين حاولوا اقتحامها. وأنزلوا مصفحات ودبابات على رصيف دلسبس، فكبدهم البورسعيديون خسائر فادحة فى الأرواح . وأخذ العرب فى كل قطر يعلنون تضافرهم مع مصر فى معركتها الخطيرة، ونسف السوريون والأردنيون واللبنانيون أنابيب البترول الممتدة من العراق إلى البحر المتوسط، وتوقف تصدير البترول السعودى إلى الغرب، ولم تلبث فرائص المعتدين أن ارتعدت حين رأت أعناق عصاباتهم تُدَق دقا فى بورسعيد وعلى ضِفَّتى القناة، فانسحبوا مدحورين إلى البحر الأبيض وما وراءه.

وفى هذه الأثناء نهضت جماعة من الصحفيين والأدباء المصريين الذين نزلوا بيروت بإصدار طبعة من صحيفة الجمهورية هناك، وشاركهم صاحبى فى شرف هذا النضال الصحفى فى تلك الآونة، ونشرت له مجلة الرسالة بمصر -فيما بعد- إحدى مقالاته التى نشرها هناك، وكان عنوانها

«ستالينجراد» الثانية، قرَنَ فيها مقاومة بورسعيد لأساطيل إنجلترا وفرنسا إلى مقاومة «ستالينجراد» فى الحرب العالمية الماضية، وكيف أن المقاومتين جميعا قضتا على المغيرين المعتدين. وبجانب ذلك كتب مقالات فى المجلات الأدبية والعلمية اللبنانية، من ذلك مقالة بعنوان: «وعى جديد» نشرتها مجلة الآداب فى عدد خاص بالمعركة، صوَّر فيها كيف أن العرب أمة واحدة فى الدين والحضارة واللغة والتقاليد، فضلا عن وحدة المصير فى الغد المرتقب، وحقا تتعدد بلدانهم، ولكن تتحد مشاعرهم وعقولهم وأفئدتهم. وأخفق العدوان الثلاثى الغادر، وأعلنت الهدنة، فرجع صاحبى إلى القاهرة على أول طائرة مصرية غادرت بيروت.

وفى صيف سنة ١٩٥٧ احتفل المجلس الأعلى للآداب والعلوم والفنون بذكرى حافظ ابراهيم، وأقام لذلك مهرجاناً بفندق سان استفانو بالإسكندرية كان الداعى إليه رئيس لجنة الشعر فى المجلس الأستاذ عباس العقاد، وكان بين من دعاهم لإلقاء محاضرة فيه صاحبى، واختار موضوعا لمحاضرته: «دراسة شعر حافظ ابراهيم دراسة تاريخية» وفيها أوضح كيف أنه نشأ فى أسرة متواضعة وكيف اندلع إحساسه

بالبؤس فى نفسه منذ مطالع حياته ومنذ تدفق ينبوع الشعر على لسانه، وانتظم فى المدرسة الحربية وتخرَّج فيها، ورافق كتشنر فى حملته على السودان سنة ١٨٩٩ وثار عليه هناك مع بعض رفاقه، وأحيل إلى الاستيداع، ثم أحيل إلى المعاش. ويمد الخديوى عباس يده إليه يريد أن يرعاه، ولكن نفسه المصرية الصلبة أبت عليه أن يكون من حواشى القصر ورعاياه. واتجه إلى خصوم عباس الشعبيين، وبذلك فَضَّل كِسْرَة بيته وإملاقه وبؤسه على عباس وأمواله وذهبه، وانتصرت مصر فى شخصه على القصر وصحبه، وظل يضرم الحمية فى شعبه لضرب الإنجليز الضربات القاصمة، مع التوجع لعللها الاجتماعية ومع إلهاب المشاعر القومية.

وكانت مشاعر الوحدة التى أبرزها العدوان الثلاثى على مصر بين الشعوب العربية أخذت تندلع بقوة فى سوريا، وهى معقل ضخم من معاقل العروبة، وأخذ الشعب السورى - ومعه الجيش والحكومة - يطمح إلى قيام وحدة سياسية بين سوريا ومصر، ورحَّبت بذلك مصر مؤمِّلة أن تتم هذه الوحدة بين البلاد العربية، حتى إذا كان أول فبراير سنة ١٩٥٨ أعلن فى القاهرة ودمشق قيام الجمهورية العربية المتحدة، موحِّدة

بين القطرين الشقيقين فى دولة واحدة، لها رئيس واحد وعلم واحد وجيش واحد ومجلس تشريعى واحد ووزارة واحدة. وهلّل لذلك الشعبان: المصرى والسورى تهليلا عظيما، وكان لذلك رنّة فرح فى كل دار. ولم تلبث العراق أن ثارت على النظام الملكى المتداعى بها فى ١٤ من يولية، وأعلنت فى دستور جمهوريتها الجديد أن العراق جزء من الأمة العربية، وبذلك كانت ثورتها امتدادًا كاسحا للعروبة.

واستدار العام وجاءه خطاب من الدكتور منير القاضى رئيس المجمع العلمى العراقى ينبئه فيه باختيار المجمع له عضوا مراسلا، وسرّه النبأ، وكتب إلى الدكتور منير لمقاضى شاكرا له ولأعضاء المجمع العراقى هذا التقدير الكريم. وفى هذا العام اختارته جامعة القاهرة ثانى اثنين ليشتركا فى أول امتحان لليسانس الآداب فى فرعها الذى أنشأته بالخرطوم، وليقدما تقريرا عن مستوى طلابها العلمى. وكانت فرصة له أن يرى الخرطوم المدينة المثلثة وموقعها من النيل الأبيض والأزرق، وليشاهد أهلها، وهم غادون رائحون فى الشوارع وإلى المساجد بوجوههم السمحة: الوجوه العربية الكريمة. واتفق ذهابه إليها مع شهر رمضان المعظم. وتصادف أن دعاه

هو وصاحبه مدير جامعة الخرطوم ليقضيا بمنزله أمسية من أمسيات رمضان وقبلا الدعوة، وضربا لها مساء معينا. وكان قد دعاهما فى نفس اليوم أحد تلاميذه مع بعض أساتذة كلية الآداب لتناول الإفطار عنده. وبعد أن قضيا معه ومع زملائهما وقتا لطيفا ذهبا إلى الزيارة المضروبة عند مدير جامعة الخرطوم، وكانت دهشتهما كبيرة حين رأيا مائدة كبيرة حافلة بألوان الطعام تُمَدُّ احتفالا بهما. ولم يكونا يعرفان أن أهل السودان الأشقَاء حين يؤذن المغرب لا يتناولون طعام الإفطار مثل المصريين بل يؤجلونه بضع ساعات مكتفين بتناول الشاى وبعض المرطبات، حتى إذا مضت طائفة من الليل أفطروا. وهمس صاحبى فى أذن رفيقه: لا مَعْدَى لنا من الإفطار ثانية، وأفطرا مرة أخرى شاكرين ربَّ الدار على كريم ضيافته وحسن مؤانسته. وزار أم درمان وتجوَّل فى سوقها واشترى منها خرزا ملونا وبعض جلود لتماسيح صغيرة، واشترك فى الامتحان الشفوى لطلاب الليسانس بقسم اللغة العربية وراجع أوراقهم فى الامتحان التحريرى، وراقه مستواهم العلمى تحريريا وشفويا، وضمن تقريره عن دراسة العربية بفرع الخرطوم ثناء مستطابا.

وفى العام التالى: ١٩٦٠ أُتيح له زيارة دمشق فى مهرجان الشعر الثانى الذى أقامه المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، وشعر - منذ وضع قدمه فى فندق سميراميس الذى نزل به - أنه فى إحدى عواصم العروبة الكبرى. وكانت دمشق - منذ الجاهلية - موئلا للعروبة، وأخذت رعايتها لها تتضاعف فِى عصر بنى أمية حين كانت عاصمة البلدان العربية جميعا، تولِّى عليها - وتعزل - من تشاء. وتحولت فى العصر العباسى إلى ولاية تابعة لبغداد، ولكنها ظلت راعية للعروبة - على مدار السنين - إلى اليوم. وكان يمزح مع بعض أصدقائه الدمشقيين ويقول لهم: لقد عرفت لماذا ترعى دمشق العروبة وتصونها وتعتز بها، لأن أرومتها فعلا عربية إذ هى جزء لا يتجزأ من بادية الشام فيبتسمون ويقولون نحن أبناء الغساسنة الذين سكنوا هذه الديار فى الحقب الجاهلية. ومن اكتمال العروبة فيهم روايتهم للشعر وإنشادهم له فى كل موقف وفى كل مناسبة طارئة، وهم لا ينشدون الشعر القديم وحده، بل ينشدون معه كثيرا من الشعر الحديث، وخاصة شعر شوقى، وقد استحال منه ما نظمه فى دمشق أيام مقاومتها للفرنسيين إلى أناشيد حماسية

ملتهبة، كانوا ينشدونها فى ثوراتهم الضارية ضد الفرنسيين مطالبين بالاستقلال والحرية، فتضطرم مشاعرهم وتتلظى تلظيًا، حتى ليستحيلون شعلا آدمية تشوى وجوه الفرنسيين وصدورهم. ولا يزال يذكر أنه حين حاول أن يسجل اسمه عند كاتب الفندق التفت إليه قائلا: أهلا بصاحب كتاب شوقى، وأنشده أبياتا من قصيدة شوقى القافية التى نظمها فى سنة ١٩٢٥ فى ثورة دمشق حين اندلعت ضد الفرنسيين، وهى قصيدة تثير الحمية فى الصخر الصلد، وكل بيت فيها كأنه شرارة نار. وما من دمشقى لقيه صاحبى إلا رآه يضم أبياتا منها إلى صدره كأنها تعويذة أو تميمة. وكان الموضوع الذى اختاره ليحاضر فيه بالمهرجان: «حاضر الشعر العربى متصل بماضيه» وما إن ألمَّ بدور شوقى فى استنهاض العرب ضد الاستعمار وقوله مستنهضا للدمشقيين ضد الفرنسيين فى قافيته المتأجِّجة:

وللأوطان فى دمٍ كلِّ حُرٍّ ... يَدٌ سلفتْ ودَيْنٌ مُسْتَحَقٌّ
وللحرية الحمراء بابٌ ... بكلِّ يَدٍ مضرَّجَةٍ يُدَق
جزاكم ذو الجلال بنى دمشقٍ ... وعِزُّ الشرقِ أوَّلُه دِمَشْقُ

حتى دوَّى الحشد الحافل بالتصفيق لشوقى تصفيقا يفوق كل وصف تمجيدا له وتكريما

وأتاح هذا المهرجان لصاحبى التقاءه بمجموعة كبيرة من شعراء الشباب المصريين والسوريين الذين ينظمون الشعر الحر الجديد، وحاورهم طويلا فيما سقط فى شعرهم من أنغام القصيدة العربية وخاصة القافية وفى إلغائهم فكرة الشطر والبيت وإحلالهم مكانهما فكرة السطر، فالمنظومة منه سطور متوالية، ولا يُعْتَدُّ فيها بشىء من موسيقى الشعر العربى سوى التفعيلة، وأقنع صاحبى كثيرين من ناظميه أن يتلافوا ما سقط من أنغامه بالعودة إلى القافية المنوعة المعروفة فى الموشحات والشعر الدورى، واستجاب منهم كثيرون - فيما بعد - إلى فكرته مستوحين صور القافية المنوعة الموروثة، إذ لا يتصور العرب شعرا بدونها، وكأنها تلتصق بأفئدتهم التصاقا. والتقى فى هذا المهرجان بشاعر لبنان الفذ أمين نخلة، وكان ينزل فى نفس الفندق بغرفة مجاورة لغرفته، وكانا كلما أتيح لهما فراغ تحدث كل منهما إلى صاحبه، وكان أمين نخلة بالغ الرقة مرهف الشعور فملأ نفس صاحبى

له حبا، وانتهت أيـام المهرجـان وودَّع كل منهـما صاحبـه، ومضت بضعة أسابيع ، وإذا بأمين نخلة يرسل إليه رسـالة فى غاية الرقة يقول فيها: «شوقى إليك ويـاشدة شـوقى، لا والله ما ظننت يوم الفراق أن أيام البعـاد سوف تكـون بـاهظة عـلى القلب، ولقـد أحسست شجـوا فـوق شجـو القلوب، وتمنيت أن يكـون قلمك فى يـدى حتى أستـطيـع وصفه». وكتب إليه متوددا متلطفا شاكرا.

وكان قد أخذ يعنى بإخراج سلسلة عن تاريـخ الأدب العـربى. وفى نفس السنة نشر المجلد الأول منها الخـاص بالعصر الجاهلى، ورأى أن يهدى نسخة منه إلى أستاذه طه حسـين، وكان لـه فى هذا العصـر كتاب أثـار ضجـة نقـد واسعة حين نشره فى العشرينيات من هذا القـرن لما ذكـر فيه من أن الكثرة المـطلقة ممـا يسمَّى أدبا جـاهليا ليست من الجاهلية فى شىء وإنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام، فهى تمثل حياة المسلمـين أكثر ممـا تمثّل حيـاة الجاهليـين، وليس بين أيدى الباحثين - فى رأيه - من الأدب الجاهلى الصحيح إلا شىء قليل جدا لا يمثل شيئـا ولا يدل عـلى شىء ولا يصح الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية

الصحيحة للعصر الجاهلى. وكان صاحبى قد درس فى كتابه هذه القضية الخاصة بانتحال الشعر الجاهلى دراسة واسعة، وناقش فيها أستاذه ومن سبقه إلى بحثها من المستشرقين، وما هى إلا أيام قليلة حتى طلب طه حسين لقاءه، ولقيه، فرحَّب به كعادته، وكان يظن أنه سيراجعه فى آرائه التى ردَّ بها على نظريته فى انتحال الشعر الجاهلى، وإذا به يثنى على جهوده فى الكتاب، ويقول إنه قرأ ما كتبه فى الرد عليه، وكان عنده بعض الصحفيين، فالتفت إليهم قائلا: إن السياسة تشغلكم الآن عن كل شىء، وكان ينبغى أن تشغلوا أنفسكم وقرّاءكم بهذا الكتاب وما يثير من أفكار وآراء.

وكان كلما ألف كتابا أهداه إلى أستاذه طه حسين، فقرأه حتى إذا زاره ثانية أخذ يحدثه عنه مع شىء من الثناء تشجيعا له، وهو ثناء تفرضه مجاملة الأستاذ الجامعى لتلميذ ومن شأن هذا الثناء أن يدفع التلميذ لكى يزداد نشاطا فى بحوثه، وكان ذلك فعلا مما يدفعه إلى الدأب فى البحث، حتى يرضى أستاذه طه حسين وأساتذته الآخرين من أمثال الشيخ مصطفى عبد الرازق وأحمد أمين . وهم - فى

الحق - لم يكونوا أساتذة جامعيين فحسب، بل كانوا أيضا آباء. وكان يقول: لعل هذا هو السر فى أنه يطلق على أعضاء التدريس فى الجامعات اسم الأسرة الجامعية، وفى كل جامعة أسرة كبرى تضم أسر الكليات المختلفة، وكل كلية أسرة كبيرة تضم أسر أقسامها، وكل أسرة صغرى لقسم يتواصل أفرادها تواصلا علميا، فكل من ينتج فى تلك الأسرة بحثا ينبغى أن يقرأه الأساتذة وأعضاء هيئة التدريس والمعيدون لأنه يُعَدّ عملا علميا من أعمال القسم، فينبغى أن يعرفه كل فرد من أفراده، وأن يكونوا على بَيِّنة منه. وهو جانب يحتمه التواصل العلمى فى الأقسام ، ويبدو أنه يدخل الآن على هذا التواصل شىء من الوهن بسبب الضغوط الاقتصادية وما سبَّبته من ضيق الوقت بحيث لا يكاد يجد الزميل الجامعى - حين يهدى إليه أحد زملائه بحثا أو كتابا - وقتا كى يفرغ لقراءته. وحدَّثه أستاذ جامعى أنه ألف كتابا فى موضوع علمى، يهم أحد زملائه، وزاره هذا الزميل، وطلب إليه نسخة من الكتاب، فقدَّم إليه تَوًّا نسخة، وما إن فتحها حتى وجدها مهداة إليه، وكأنه كان قد صمم على إهدائه نسخة من

الكتاب، وفعلا كتب عليها الإهداء ونسى أن يصحبها معه ليقدمها إلى زميله فى الكلية. وأكمل هذا الأستاذ الجامعى حديثه لصاحبى قائلا: إننى لا أزال أنتظر من هذا الزميل كلمة عن الكتاب فى لقاء بل حتى فى تليفون!. وهذا طه حسين لم يضق بكتاب صاحبى عن العصر الجاهلى مع أنه رآه فيه ينقض نظريته فى انتحال الشعر المنسوب إلى العصر الجاهلى بل لقد استدعاه ليثنى على جهده فى الكتاب. ونحن لا نقدر صنيع طه حسين وأمثاله من الأساتذة الجامعيين حق قدره إلا إذا عرفنا أن من الأساتذة مَنْ إذا خالفه تلميذه فى فكرة أو فى أفكار فى بحث علمى ثارت ثائرته. وهى صورة تناقض - بدون ريب - تطور البحث العلمى أشد المناقضة لأنها تؤول به إلى التوقف والجمود. ومن المؤكد أن الباحث العلمى الجدير بهذا الوصف يعرف لمن يجيئون بعده ويخلفونه فى الدراسة حقوقهم فى حرية البحث والخلوص فيه إلى أفكار جديدة لم تخطر بباله، وواجبه أن يطرى هذه الأفكار مهما خالفت آراءه، على نحو ما أطرى طه حسين كتاب تلميذه مع مخالفته لبعض آرائه، بل لقد دعا من كان بمجلسه من الصحفيين إلى الكتابة فى

صحفهم عن كتابه والتنويه به. وجاءته رسالة من باحث كبير بحلب هو الأستاذ خليل هنداوى يثنى فيها على كتابه العصر الجاهلى حتى ليقول مبالغا فى ثنائه. «لا يروعنك أن لا يهلّل لكتابك العصر الجاهلى ويطبّل، فالمصابيح العالية تضىء الطريق للعابرين دون أن يكلف العابرون أنفسهم مشقة رفع الرأس إلى الأعلى» ورد صاحبى على الأستاذ الهنداوى شاكرا.

ودُعى فى شهر مارس لسنة ١٩٦١ لإلقاء محاضرة فى المركز الثقافى بحلب، ولبّى الدعوة، ونزل دمشق وكانت أياما ممطرة، فأخذ الطائرة إلى حلب لغزارة الأمطار على الطرق المؤدية إليها من دمشق، وكانت طائرة بمحرّك واحد، وتعب كل ركابها فى الرحلة، وبعد لأىٍ هبطت الطائرة فى حلب ولقى بعض أدبائها فى استقباله مرحبين، وظلت الأمطار فى الأيام الثلاثة التى أقامها فيها تسقط بغزارة، والسماء ماتنى ترعد وتبرق. وفى المساء ذهب إلى المركز الثقافى لإلقاء محاضرته، والمطر يسقط مدرارا، ورأى جمعا من أدباء حلب فى انتظاره، وكان المركز غاصا بجمهور ضخم ولم يجد كثيرون مكانا لهم فيه، فوقفوا

أمامه ليستمعوا إلى محاضرته عن طريق ميكروفونات معدَّة فى المركز لمثل هذه المناسبة. وكان الموضوع الذى اختاره ليحاضر أهل حلب فيه هو: «الروابط الوثيقة بين أدبنا وقوميتنا» ومضى يستعرض هذه الروابط حتى العصر الحديث، إذ ظلت الأقاليم العربية - على مر العصور - تتشابك تشابكا قويا فى اللغة والأدب والفكر والروح والشخصية. واستقر فى نفسه منذ إعداد هذه المحاضرة أن العصر الذى امتدَّ من منتصف القرن السابع الهجرى إلى القرن العاشرِ لم يكن عصر جمود وركود فى الأدب شعره ونثره، كما ظنَّت كثرة الباحثين من العرب والمستشرقين، إذ رأوا أدباء العالم العربى يتمسكون تمسكا شديدا بالأصول الموروثة لأدبهم، فخالوا ذلك ركودًا وجمودًا، وهو إنما كان حرصا على هذه الأصول ورغبة قوية فى الاحتفاظ بها أمام حملات الصليبيين الغربيين والتتار الشرقيين وغارات الإسبان الشماليين فى الأندلس، حتى تظل الشخصية العربية راسخة بكل خصائصها ومقوماتها الأدبية والفكرية والروحية.

وأعقبت المحاضرة حفلة سمر أدبى مع شعراء حلب.

وكتابها من الصحفيين وغير الصحفيين، تعرَّف فيها على كثيرين منهم، وشعر - بحق - أنه فى بيئة عربية زاخرة بالشعر والأدب، بيئة تصله بها أواصر العروبة التى تتراءى ماثلة بقوة فى كل الأوطان العربية، مهما أبعدت فيها شرقا أو غربا وشمالا أو جنوبا. وعاد إلى فندقه، فبات فيه، والمطر الغزير يتدافع على نوافذه، وأخلد إلى النوم، وبينما كان فى الصباح يطل من نافذة غرفته إذ وجد لافتة عليها اسم محام كبير هو الأستاذ «زلط». وكانت مفاجأة له أن يرى فى حلب بأقصى الشمال من بلاد العرب أسرة تجتمع فى لقبها: «زلط» مع لقب أسرة فى قريته بأقصى الشمال من الدلتا بجوار دمياط كان يلعب فى صباه مع أحد أطفالها. وحقا ديار العرب واحدة مهما طوَّفت فى آسيا وأفريقيا إذ تلقاك نفس الأسر بألقابها وأسماء أفرادها، وأيضا بنفس العادات والتقاليد والسلوك والروح.

وزار قلعة حلب، وتجلَّت له بطولة سيف الدولة الخارقة، إذ استطاع بكتائب حربية قليلة كانت مرابطة معه فى هذه القلعة الصغيرة أن يسحق مرارا جيوش البيزنطيين الجرارة فى غير موقعة، وبلغ من كثرة معاركه معهم ومنازلته لهم أن

جَمَع مما علق بدروعه وسلاحه فى وطيس حربهم غبارا كثيرا اتخذ منه لَبِنةً بقدر الكف، وأوصى أن توضع تحت خَدِّه فى لحده. ونفذت وصيته. وقد ظل المتنبى سنوات طوالا يتغنى ببطولته الحربية غناء لايزال يخترق سمع الزمن إلى اليوم. وطاف صاحبى بالقلعة، ومن أروع ما شاهده فيها قاعة سيف الدولة التى كان المتنبى ينشده فيها أشعاره وهو جالس، إكراما من سيف الدولة لشاعره الفذ وإعزازا. وينثر عليه فى لقائه الأول دنانير الذهب، وتأبى عليه كرامته العربية أن ينحنى ليجمع منها شيئا شاعرا أنه بدوره ينثر على سيف الدولة البطل العربى دنانير من الشعر أكثر نفاسة وخلودا.

وبارح حلب وظل يذكر رحلته إليها طويلا حتى إذا كاد شهر سبتمبر يبلغ نهايته أعلنت سوريا انفصالها عن مصر، وهكذا بين عشيّة وضحاها تبدَّد الحلم الذى علّقته البلدان العربية على الوحدة بين القطرين الشقيقين، وكان لذلك أصداء حزن عميقة فى نفوس السوريين والمصريين جميعا. وفى شهر يولية من سنة ١٩٦٢ تمَّ لثورة الجزائر طرد البقية الباقية من الفرنسيين ببلدهم إلى البحر

المتوسط وما وراءه، وأعلنت الجزائر أنها دولة عربية اشتراكية. وفى شهر سبتمبر شبَّت الثورة اليمنية وسرعان ما تقوضت الملكية بها، وأُعلنت الجمهورية فى صنعاء واليمن الشمالى، وأيدتها مصر. وتضامنت مصر مع الثورة هناك ونهضت باليمن الشمالى فى جميع شئونه الاقتصادية والتعليمية والحضارية.

٦

وفى ربيـع سنة ١٩٦٣ دعت صـاحبى جامعـة بـيروت العربية أستاذا زائرا بها لمدة أسبوعين كى يحـاضر طـلابها فى تاريخ البـلاغة العـربية، واستجـاب لدعـوتها، وكـانت المحاضرات والدراسة بها مسائية، ونزل فى فنـدق ببيروت، وذهب غداة نزوله فيها إلى الجامعة فلقى مـديرهـا وعميد آدابها ورحبا به. وفى المساء ذهب إلى كليـة الآداب لإلقاء محاضراته بها، ودخل قاعة المحاضرة، فوجـد بين الـطلاب تلميذا قديما عزيزا له، هو الشيخ الجليل الشهيد الـدكتور صبحى الصـالح نـائب رئيس المجلس الإسـلامى الأعـلى بلبنـان طيب الله ثراه وجعـل الفردوس مثـواه. وسرعـان ما وقف يحيى صاحبى قائلا: «لقد جئت أستمع إليـك هنا فى بلدى لأفيد من محاضراتك، فـإنى لا أنسى محاضـراتك

وما أفدت منك بجامعة القاهـرة». وكانت تحيـة كريمـة من أستاذ بارٍّ له دراساته الإسلامية والعلمية القيمة، ومثل هذه التحية يُعَدّ الجزاء الأوفى للأساتذة الجـامعيين حـين يجدون طـلابهم بعد سنـوات طويلة وبعـد أن أصبحـوا أسـاتـذة مرموقين لايزالون يذكرونهم ذكرا جميـلا، وإنه لـذكر، بـل إنـه لوفـاء - ونعم الوفـاء - وهو وفـاء ينفض عنهم كل ما علق بهم من غبار العناء العلمى طوال السنين، ويجعلهم يستشعرون سعادة لا تماثلها سعادة، إذ يلقون أبناءهم وقد نالوا من النجاح العلمى قسطا عظيما لايـزالون يـذكرون لهم - أمام الملأ - أستاذيتهم بكل تقدير وكل امتنان وكل عرفان.

واغتنم فرصة زيارته للبنانٍ وجاس خلال مناظرها الطبيعية البديعة، وأخذ بصره يتملى بجمال مرتفعاتها الصاعدة ووديانها المنحدرة، وخلب لُبَّه وادى «بِشرِّى» قريةٍ «جبران خليل جبران» الشاعر اللبنانى المشهور التى تربى فى مهادها وأمضى صباه وشبابه بين مشاهدها وملاعبها، وإن جمال واديها ليفوق كل وصف. لذلك لم يكن غريبا أن يهب هذا الوادى من وديان لبنان العربية شاعره الفذ «جبران» وأن يصرفه

عن أغراضٍ الشعر العربى القديمة من مديح وغير مديح إلى الطبيعة يتغنى بجمالها غناء المفتون بسحرها، وغوَّرتْ ذلك فى نفسه هجرته إلى الغرب وإلى أمريكا الشمالية وعالمها الصناعى الذى حكَّم الآلة فى الإنسان وجعله عبدًا لها بعد أن كان سيدها، ومسخَّرًا لها بعد أن كان يسخرها، مما جعله يثور على الحضارة الغربية ويدعو إلى الفرار منها إلى الطبيعة، ولو استطاع لفرَّ منها إلى أحضان الطبيعة، بل لو استطاع لعاد أدراجه إلى وادى «بِشرِّى» وإلى الجمال الهاجع فى أنحائه وأرجائه. ولكن أين هو من وادى بشرِّى؟ لقد نأى عنه بعيدا ونأت معه القرية البسيطة «بشرِّى» حيث يشيع الجمال المطلق، وحيث كان يحيا حياة بسيطة بعيدا عن المدينة وأوزارها وكل ما فيها من سيئات. وقد أوصى أن يعود جثمانه بعد موته إلى مسقط رأسه «بشرِّى» ما دام لم يستطع العودة إليها فى حياته وعاد به قومه فى احتفال رهيب. وزار صاحبى قبره على حافة الوادى، وهو يرقد فى أعلاه بين غابه وعلى مشارف زروعه وجناته الفيحاء وعلى مقربة منه مكتبته، وبها مؤلفاته العربية والإنجليزية الرائعة.

وفى شهر مارس من سنة ١٩٦٤ لبَّى الأستاذ العقاد نداء

ربه، وأخذت توجَّه إليه - عقب وفاته - حملات نقد ضارية منتقصة مكانته الأدبية الرفيعة، فرأى أن يخصه بكتاب للدفاع عنه، كما دافع من قبل عن شوقى، وأيضا عن البارودى إزاء ما وصفه به بعض النقاد من أنه يستوحى فى شعره التراث بأكثر مما يستوحى حياته وواقعه وعصره، وهو نقد ظالم لحامل لواء الشعر العربى الحديث مهما تنوعت مدارسه وتفاوتت اتجاهاته بين المحافظة والتجديد. وبدون ريب هؤلاء الثلاثة: البارودى وشوقى فى الشعر والعقاد فى النثر يُعَدون جزءًا لا يتجزأ من مجد مصر الأدبى الحديث، ولذلك تصدَّى صاحبى للدفاع عنهم حتى يجلو شخصياتهم للجيل المعاصر، ويوضح كيف هيأوا لمصر منزلة أدبية ممتازة فى الأدب العربى الحديث.

واستدارت السنة الجامعية، فأعارت جامعة القاهرة صاحبى إلى جامعة عمان بالأردن ليشارك فى تأسيسها وليحاضر طلاب قسم اللغة العربية بها فى بعض مواده. والتمس منه أساتذة القسم - وكانت كثرتهم من تلاميذه - أن يحاضر الطلاب فى تاريخ الأدب العربى فى الحقبة الممتدة من منتصف القرن السابع الهجرى إلى القرن العاشر، وهى

الحقبة التى تعوَّد مؤرخو الأدب العربى أن يسموها باسم العصر المغولى واصفين هذا العصر بأنه كان عصر انحطاط وتخلف فى جميع جوانب الحياة الأدبية والعلمية. وهو ظلم مجحف لهذا العصر الذى سحقت فيه مصر جموع الصليبيين والتتار، مما أذكى الحركتين العلمية والأدبية فيها، وجعلتها - منذ ذلك الحين - زعيمة للبلاد العربية، وكانت قد أصبحت ملاذا لعلماء صقلية وأدبائها منذ غزاها النورمان فى القرن الخامس الهجرى، وأصبحت منذ غزو التتار لبغداد فى أواسط القرن السابع الهجرى ملاذا أيضا لأدباء بغداد وعلمائها، وبالمثل كانت قد أصبحت منذ سقوط مدن الأندلس فى أيدى الإسبان ملاذا لعلماء الأندلس وأدبائها . وقد مضت تنهض بالأدب وبالعلوم الشرعية واللغوية والعلوم الخالصة من طب وغير طب. وكل ذلك كان قد أخذ يشغله منذ محاضرته بحلب على نحو ما مرَّ بنا، وأخذ يرى أن هذا العصر المغولى - كما اصطلح أصحاب التاريخ الأدبى على تسميته - فى حاجة إلى دراسة جادة تكشف حقائقه الأدبية والعلمية من جميع وجوهها، حتى تكون الأحكام عليه سديدة ودقيقة، وأتيحت له الفرصة الآن فى جامعة عمان لكى يدرسه دراسة خصبة،

وأكبَّ على دراسة أدبائه وعلمائه، وإذا هو يتضح له - بقوة - خطأ ما يردده الباحثون من عرب ومستشرقين من أن الحضارة العربية جفَّت ينابيعها حينذاك وغشيها فى الأدب والعلم غير قليل من الخمود والجمود، وهو ما لا يستقيم - بحال - مع ماردَّ إلى العرب - فى تلك الأيام - من قواهم الحربية العاتية، بحيث قضوا نهائيا على جيوش حَمَلة الصليب ووقفوا مدَّ السَّيْل التتارى الجارف، بل لقد دفعته مصر إلى الوراء دفعًا عنيفا. فكان طبيعيا أن تزدهر الحياة الأدبية والعلمية فى العصر المغولى - كما كان يسمَّى - لا أن تضمحلّ وتذوى وتذبل كما يردد الباحثون، بل على العكس تونق وتزدهر كما أوضح ذلك فى محاضراته حينئذ وبعد ذلك فى كتاباته. ولم يفد صاحبى من إعارته إلى الجامعة الأردنية انكشاف الحياة العربية العلمية والأدبية له انكشافا تاما من القرن السابع الهجرى إلى القرن العاشر ورد اعتبارها إليها، لم يفد ذلك فحسب، فقد أفاد أيضا وضعه دراسة منظمة - لأول مرة - للمدارس النحوية عند العرب، إذ التمس منه تلاميذه من أساتذة قسم اللغة العربية أن يحاضر فيها طلابهم، فعرضها لهم عرضا مفصلا تحدث فيه عن نشأة كل مدرسة

وتطورها ومنهجها وآرائها وأعلامها على مر الحقب.

وأمضى فى جامعة الأردن ثلاث سنوات كانت من أسعد أيامه لا بمن وجدهم فيها فقط من تلاميذه القدماء، بل أيضا بمن توثقت بينه وبينهم الصداقة من أساتذة كلية الآداب الأردنيين والفلسطينيين، فقد ظلوا جميعا يسبغون عليه حفاوة كريمة ظلت تتجدد كل يوم، وإنه ليستشعر دائما ذكراهم الأرجة، فهذا الدكتور ناصر الدين الأسد مدير الجامعة بحصافته وحسن شمائله وطيب أنسه، وهذا الدكتور غرايبة عميد الكلية بنوادره وظرفه وخفة ظله ولطفه وأحاديثه الشيقة، سوى أساتذة قسم اللغة العربية من أصدقائه الأوفياء، بأدق معانى كلمة الأوفياء وأعمقها وأوسعها فى آن واحد.

ونعمة كبرى حظى بها طوال مقامه بالجامعة الأردنية، هى نعمة الصداقة التى توثقت عُراها بينه وبين أمين الجامعة العام حينئذ الأستاذ حسن النابلسى الذى كأنما خُلق لتتمثَّل فيه المروءة العربية فى أروع صورها مع سداد الرأى والحس المرهف ومع رقة الشمائل وعذوبة الحديث. وما إن التقى به فى الجامعة حين دخلها لأول يوم، وتحدثا معا، حتى أعجب كل

منها بصاحبه وشعر كأنما وجد أخاه الذى كان غائبا سنوات طوالا، وطالما سأل عنه ووَدَّ لقاءه. وظلت الأيام تزيد هذه الأخوة توثقا. وإن ما غمره به من مودة ليقصر عنه أى وصف، من ذلك أنه كان كثيرا ما يهلّ عليه مساءً بطلعته السنية، وما يلبث أن يحبِّب إليه مرافقته فى نزهة بضواحى عمّان، وكاد لا يترك منظرا رائعا من مناظر الطبيعة فى تلك الضواحى إلا ألمَّ به معه على ضفاف الجداول الرقراقة وبين قطع الخضرة السندسية وعلى حفاف الجداول وفى منعطفات الوديان، وكم جلسا بين مفاتن الطبيعة الأردنية يمتعان البصر والنفس وينسجان الأحاديث الحلوة، وكم رافقه إلى ضيعة له، فنعم معه برؤية غروسها وثمارها وبشذى أزهارها الذكية. وهى أخوة نادرة فى هذا الزمان: أن يجد الإنسان فى غربته أخا كأنما هو قطعة من نفسه أو توءم روحه، بل كأنما أنت وهو أصبحتما شخصا واحدا، فإذا تحدث إليك خِلْت أو ظننت كأنما تتحدث إلى نفسك، أو كأنه مرآة صافية مصقولة ترى فيها شخصك وكل ما يجرى فى حنايا صدرك وقلبك من خلجات وخواطر، وأين يوجد هذا الأخ اليوم؟ لقد ترامت على النفوس غشاوات كثيرة من الأطماع والمآرب تحجب عنها

أشعة مثل هذه الأخوة من أجل الأخوة لا من أجل مأرب ولا من أجل نفع ولا من أجل جزاء أو شكور، فهى نفسها الجزاء والنفع والمأرب والغاية والمتعة التى لا تماثلها متعة. وقد أوشكت مثل هذه الأخوة أن تصبح أسطورة من الأساطير، وتحققت الأسطورة له ولم تعد خيالا ولا حلما أو وهما. ولم يكن يمر عليه يوم مع صديقه إلا كان أحمدَ له فى نفسه من اليوم الذى سبقه، بل لقد تساوت الأيام مودة وأخوة وحسنا ، إذ كانت دائما أنسا لا تشوبه أى وحشة، وصفوا خالصا لا يشوبه أى كدر. وكان أديبا يرصف خواطره وكأنما يرصف دُرًّا أو ينظم لؤلؤا من الكلم، وكان راوية ذواقا للشعر ينشد أروعه وأعذبه وأمتعه، وكان لا ينى ينشد حكما بديعة من شعر المتنبى، وكان مفتونا فتنة لا حد لها بضرير المعرّة: أبى العلاء، وكان ينشد له أشعارا رائعة طالما غذّت روحه وعقله.

ودعته جامعة بيروت العربية - وهو معار إلى جامعة الأردن - ليلقى بها محاضرة وتركت له حرية الاختيار لموضوعها، واختار موضوعا لها: «نواقص الإيقاع فى الشعر الحر» وكانت بيروت - حينئذ - تعد عاصمة هذا الشعر

لكثرة شعرائه فيها وكثرة نقادها الداعين إليه، وغصت قاعة المحاضرات فى الجامعة بالحاضرين لسماع محاضرته، وكان بينهم كثيرون من ناظميه وأنصاره، وكان موقفه فى محاضرته منه موقفا معتدلا بين أنصاره وخصومه، فعرض حجج الطرفين عرضا مفصلا، وناقش تلك الحجج مناقشة هادئة منصفة، وخلص إلى أنه ينبغى أن تُرَدّ إلى الشعر الحر القافية المنوعة والصياغة الفصيحة الناصعة، حتى يجد العرب فيه متاعهم الشعرى الهنىء،واستجاب - فيما بعد - كثيرون من ناظميه لآرائه، وهم يتزايدون يوما بعد يوم.

وفى شهر ديسمبر من السنة الدراسية الثانية بالجامعة الأردنية أرسلت أسرة صاحبى إليه برقية تنبئه فيها بأن صحة أبيه فى تأخر، ولم تصله البرقية، وشكّ ابنه أن البرقية لم تصله، فأرسل إليه برقية ثانية وصلته، غير أن القضاء كان قد حُمّ، وشُيِّعت جنازة أبيه دون أن يودِّعه، ودخل منزله فى القاهرة، فلقيه ابنه وقبَّله فعرف أن القضاء سبقه، فذهب توًّا إلى دمياط ليتقبَّل العزاء، وليشارك والدته وإخوته فى الحزن، وليزور قبر أبيه الذى منحه الوجود، وكان به بارًّا برًّا فوق الوصف، وكان شيخا صالحا، وظل سنوات طوالا، لا يغفل

لسانه عن تلاوة القرآن، حتى لقد يتلو فى اليوم الواحد ثلثه أو يزيد. ومع أنه توفى عن سنٍّ عالية ظل صاحبى محزونا لوفاته دون رؤيته حزنا عميقا، وظل يغدو على قبره إلى اليوم الأربعين من وفاته مترحِّما عليه قارئا عنده ما تيسر من الذكر الحكيم، ودموعه لا ترقأ ولا تجف. وغريب أمر الإنسان يعرف أن الموت حق وأن الدنيا أشبه بفندق كبير يدخله يوميا مولودون وافدون، ويخرج منه ميتون راحلون. وعلى الرغم من هذه الحقيقة الكبرى التى يعرفها الناس جميعا حق المعرفة كلما فارق الإنسان عزيزٌ عليه فَزِع إلى الحزن وإلى دموعه كأنما يجد فيها راحته. ومن أكبر الخطأ أن يبالغ الإنسان فى حزنه على راحل له اختاره الله إلى جواره، إذ كثيرا ما يفضى الحزن المفرط بصاحبه إلى مرض لم يكن فى حسبانه، وما أشبه دموع الحزن بالمطر، فإنه إذا سقط على زهرة لا تزال فى كِمِّها لم يصبها بأذى، أما إذا سقط على زهرة متفتحة فإنه يفتت أوراقها وتذروها الرياح. وبالمثل دموع الحزن فإنها لا تؤذى الشباب، أما من فارقهم الشباب فإنها تؤذيهم أذى بالغا، وقد يفضى ذلك إلى مرض وبيل.

٧

ورأى أن يؤدى فريضة الحج فى السنة التالية، واصطحب معه زوجته وبدأ بالزيارة النبوية، وشعر حين نزل المدينة بفيض من النور والشذى العبق يغمرها بهما القبر الطاهر مهوى أفئدة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وما من مسلم إلا ويتمنى أن يشدَّ الرحال إليه وتكتحل عيناه برؤيته. وبمجرد أن دخل المسجد الشريف اتجه إلى مقصورة الرسول ﷺ، وحيَّاه بتحية الإسلام، ووقف أمامه خاشعا، وعيناه مُغرَوْرقتان بالدموع، وقلبه يخفق بتيار دافق من الحب والإجلال له يَسْرى فى جميع كيانه، وهى لحظة فرح وابتهاج يشعر بها كل مسلم حين يزور الرسول الكريم، إذ يظل سنوات تلو سنوات يحلم بلقائه، وإذا الحلم يتحقق دفعة واحدة، وإذا هو - وجهًا لوجه - أمام الرسول العظيم الذى

امتلأ العالم بأضواء رسالته وأشعة هداها الساطعة، والذى حرَّر أتباعه من الوثنية والخرافة والخوف والجهل مالئا قلوبهم ثقة وأملا ورجاء باثا فيهم أخلاقية رفيعة وقوة لا تماثلها قوة زلزلوا بها العروش وفتحوا العالم القديم. ارتسم ذلك فى ذهنه فتوجه إلى الله ضارعا: «رَبِّ أَعِدْ لنا القوة حتى نقهر أعداءك وأعداءنا قهرا لا تقوم لهم بعده قائمة، كما عوَّدت آباءنا الأولين، اللهم أعِدْ لنا القوة التى كانت تنبثّ فى كل ذرَّة من كيان أسلافنا السابقين حتى نسحق ضلوع أعدائك وأعدائنا سحقا ونبطش بهم بطشة كبرى». وجاس خلال المسجد النبوى، وشعر بجلال ما بعده جلال، وهو يسير بقدميه فى الأماكن التى سعدت بمسيرة الرسول فيها ووقوفه وجلوسه مع أصحابه والتى تعطرت بأنفاسه وبتلاوته للذكر الحكيم. واستدار فى الزحام، وصلَّى ركعتين فى الروضة الشريفة، وأخذ يتلو بعض سور القرآن الكريم. ثم اتجه إلى القبر الشريف مودعا اللألاء المحمدى.

وعاد مع زوجته إلى الفندق، فاغتسل غُسْلَ الإحرام، ولبس إزارا من وسطه إلى قدميه وإزارا ثانيا من وسطه إلى كتفه الأيمن، وثبَّتهما بحزام، وصلى ركعتين ناويا الحج والعمرة

داعيا الله أن ييسِّرهما له منيبا إليه، وأحسَّ كأنما بُدِّل شخصا آخر بتجرده من ثياب الحياة اليومية ولبسه ملابس الإحرام، إذ شعر كأنما تخلص من كل علائق الدنيا وشواغلها. وطار مع زوجته إلى جدة مكثرا من التلبية، ومنها إلى مكة مجتمع الحجيج وتوضأ ودخلا المسجد الحرام وهما يهللان ويكبران، وطافا طواف القدوم: سبعة أشواط يبتدئان كل شوط من الحجر الأسود متجهين إليه، ثم يستديران إلى اليسار طائفين الشوط ثم بقية الأشواط، متجهين إلى ربهما بقلبهما داعيين مستغفرين. وأخذ يتعوَّذ من مظان الزلل والعثار ومزالق المآثم والخذلان مؤملا فى رضوان الله. وينظر من حوله إلى الطائفين، فيرى بشرا على الوجوه من كل جنس وكل لون، والجميع يلبُّون ويضرعون إلى ربهم مبتهلين إليه لائذين بجنابه وحماه، وقد استغرقوا فى نشوة روحية، فقد خلَّفوا الدنيا ومآربها المادية من ورائهم، وأخذوا يسبحون فى عالم جديد، عالم ربانى مضىء. وإنهم ليعيشون فيه أياما هنيئة متنقلين بين مناسك الحج والطواف بالكعبة والسعى بين الصفا والمروة والمسيرة المبهجة بين منى وعرفات والمزدلفة، وكأنما لا يقطعون مسافات أرضية، إنما يقطعون مسافات روحية كانت تفصل

بينهم وبين النور الإلهى، وإنه ليشع هناك على جميع المناسك، بل حتى على الجبال والسفوح والقيعان، وإن إشعاعات منه لتنفذ إلى قلوب الحجاج، فتنزاح عنهم كل مخاوف الدنيا وكل أطماعها وكل كروبها وكل همومها، وينزاح معها القلق والحيرة واليأس والطمع والجزع، ويشعرون بأمان لا يماثله أمان، وطمأنينة لا تعدلها طمأنينة، طمأنينة تملأ نفوس الحجاج راحة وثقة بالله فى كل منسك: فى منى وفى مسجد نمرة بعرفات، وفى المزدلفة حين يجمعون منها الحصى ليرموا بها الجمرات فى أيام معدودات.

وأحسَّ - وهو يؤدى مناسك الحج - كأنما هو نقطة فى أمواج متدافعة من الحجاج لا أول لهم ولا آخر، أتوا من أقصى الغرب فى إفريقيا إلى أقصى الشرق فى آسيا من الصين والفلبين ومن الشمال فى تركيا وروسيا إلى أقصى الجنوب فى أندونيسيا وإفريقيا فى تيارات لا تنقطع، أتوا رجالا وركبانا على السفن والطائرات، يحجون إلى البيت العتيق، متنقلين بين المناسك، وكأنهم جيش ضخم وُقِّتت معركة زحوفه توقيتا دقيقا، وكأنما أريد بالحج أن يكون مثالا واضحا لدقة تنظيم الجيش وصفوفه يوم القتال جهادا فى

سبيل الله ودينه الحنيف، وتتوالى الأفواج فوجا بعد فوج، وتتعالى التلبيات والتكبيرات فى كل منسك إلى عنان السماء.

ومنذ السحر فى ليلة عيد الأضحى تتوافد الجموع الضخمة على جمرة العقبة الأولى ترميها بالحصيات، ويخشى بعض الحجاج - وخاصة من الشيوخ والنساء - شدة الزحام، فيوكلون عنهم فى الرمى. وصمم صاحبى وزوجته أن يرميا حصياتهما بأنفسهما، واستطاعا - وسط أمواج الزحام المتلاطمة - أن يجدا منفذا إلى الجمرة وأن يسددا مع الحجاج إلى الشيطان الملعون ما معهما من حصيات، وقد سددها إليه - من قبل - الرسول الكريم وكأنما أراد أن يضعه تحت أقدام المؤمنين جميعا من أمته، حتى لا يكون له حول عليهم ولا طول، بل حتى يذوق هوانا ما بعده هوان. وبعد رمى تلك الجمرات يهنىء الحجاج بعضهم بعضا بالعيد، وحقا أنه عيدهم الأكبر، عيد انتصارهم لاعلى الشيطان أو إبليس وحده، بل أيضا على جميع نزغاتهم وماران على نفوسهم من غشاوات، بل إنه يوم انتصارهم على الحياة نفسها ومآربها المادية.

ويتجه مع زوجته إلى الكعبة لطواف الإفاضة، وقد وكلا عنهما من يقوم بذبح الأضاحى. وعادا فى اليومين التاليين إلى

رمى الجمرات إذلالا للشيطان ومكايده. وطافا طواف الوداع لساحات ربهما القدسية. ويشعر الحاج حينما يفرغ من أداء الحج والمعيشة أياما فى مناسكه، كأنما ارتد به الزمن إلى يوم ميلاده إذ تطهر من كل إثم، وكأنما خُلق من جديد خلقا آخر، خلقا سويا، ويبتهل صاحبى إلى ربه أكرم الأكرمين أن يكون دائما له الكالئ والراعىَ والحافظ والمعين.

وكان مما أثَّر فى نفسه أن كثيرين ممن يقومون بأداء فريضة الحج لا يعرفون شعائره وكيفية أدائها معرفة تامة، وفى رأيه أنه ينبغى على حكومات البلاد الإسلامية أن تهيىء للحجاج فى كل بلدة علماء يعلمونهم شعائر الحج قبل سفرهم إلى أداء الفريضة، بحيث يعرفون مناسكه وما ينبغى عليهم فيها معرفة صحيحة. وواجب على هؤلاء العلماء أن يعرِّفوا المسلمين بوضوح أن فريضة الحج إنما تجب على من استطاع إليه سبيلا، بحيث يكون سليم البنية معافىً، قادرا على نفقات الحج، فالبائس الفقير والمريض لا يجب عليهما الحج إلى بيت الله، أما الفقير فيفقد الاستطاعة المادية من الزاد والراحلة وما يقوم مقامها من البواخر والطائرات، وأما المريض فإنه يفقد الاستطاعة الصحية والقدرة الطبيعية على السير

والحركة، وفى القرآن الكريم: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ وفيه: ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حَرجٍ﴾ وفى الحديث النبوى: «الدين يسر لا عسر». وليس من الدين الحنيف فى شىء أن يكلف المسلم نفسه مشقة لا يطيقها أو ترهقه من أمره عسرا.

وعقب عودته من الحج دعته جامعة بغداد فى شهر أبريل لزيارتها لمدة أسبوعين، ولبَّى الدعوة، وألقى بها عددا من المحاضرات فى كلية الآداب وفى كليات ومعاهد مختلفة. وانتهز الفرصة فزار مشهد الحسين فى كربلاء ومشهد أبيه على ابن أبى طالب فى الكوفة، والمشهدان من أعاجيب العالم الإسلامى بما على ضريحيهما ومآذنهما من صفائح الذهب وما على ستائرهما ومصابيحهما من فنون الزخرفة والزينة، وقيل لصاحبى: إن فى متحف الحسين سجاجيد إيرانية محلاة بالجواهر ومصاحف مزخرفة زخرفة بديعة، وقال لبعض مرافقيه متمنيا: حبذا لو تحول كل ذلك إلى متحف، فإنه يدرُّ دخلا كبيرا تنتفع به العراق أو على الأقل محافظة الكوفة. ورأى فى تلك المدينة مكتبتين نفيستين زاخرتين بمخطوطات قيمة. وفى يوم ثان زار سامرَّاء شمالى بغداد وتجول فى أطلالها

وشاهد رسوم مسجدها الكبير وكيف أن الزمن لم يبق منه إلا على بقايا من حوائطه ومئذنته الملتوية التى بُنيت على طرازها مئذنة جامع ابن طولون.

وأمضى ببغداد ليلة طريفة فى زيارة ندوة شعرية التقى فيها بصفوة من شعراء العراق فى مقدمتهم محمود الحبوبى ومحمد صالح بحر العلوم والجعفرى وقد حيوه هم وبعض زملائهم من الشعراء بأبيات رقيقة نظموها على البديهة. وشعر لكثرة ما سمع فى هذه الليلة من أشعار بديعة كأن للشعر نهرا كبيرا يجرى فى العراق بجانب دجلة والفرات، ولا يجرى مثلهما من الشمال إلى الجنوب، بل يجرى من الجنوب إلى الشمال من الكوفة إلى بغداد وما فوق بغداد. وتطارح الشعراء أشعارهم، وكأنما عادوا به إلى ليلة من ليالى الشعراء ببغداد فى العصر العباسى. وكان ممن استمع إليه بينهم شاعر يتغزل بغلام، وكان فى أثناء إلقائه لأبياته الغزلية يأتى من الإشارات والحركات ما يضحك سامعيه، ونبَّه ذلك صاحبى إلى أن كثيرا من الغزل الذى نُظم قديما فى الغلمان ببغداد والكوفة والبصرة إنما نُظم على سبيل الضحك والفكاهة. ودفعه ذلك - منذ هذه الليلة - إلى أن يعدِّل فى

الفكرة التى شاعت بين مؤرخى الأدب والنقد عن العصر العباسى زاعمين أنه كان يشيع فيه الغزل الشاذ بالغلمان شيوعا مسرفا متخذين من ذلك دلالة على الانحلالِ الخلقى الذى كان يسرى فى المجتمع، وقد أخذ فى كتبه يخفف من حدَّة هذه الفكرة ذاهبا إلى أن كثيرا من هذا الغزل نُظم على سبيل الفكاهة والتندير وإضحاك المستمعين. وتأثر تأثرا عميقا حين ذهب إلى مطار بغداد ليستقل منه الطائرة عائدا فوجد جمعا من تلاميذه ومن شعراء بغداد جاءوا لوداعه، وكان من بينهم الشاعر الحبوبى الذى أنشده أبياتا لطيفة فى وداعه، منها قوله:

تعجبت الحسناء منى وقد خلا
فؤادىَ من شوقٍ إليها ومن تَوْقِ
وقالت: أجبنى أين شوقك قد مضى؟
فقلتُ إلى مصرٍ مضى ذاهبًا «شوقى»
وداعًا وداعًا يا أديبًا حديثُهُ
يَنَبِّئ عن حِسٍّ رهيفٍ وعن ذَوْقِ

وعانقه كما عانق مودعيه جميعا شاكرا لهم ما تجشموه فى وداعه من مشقة.

ومضت أشهر الصيف سريعة وبدأت السنـة الدراسيـة فى أكتـوبر كـالعادة، ورأت كليـة الآداب أن تجعل السنـة الأولى بهـا سنة إعـداديـة عـامـة لجميـع الأقسـام وجميـع الطلاب، وجعلت لكل قسم فى تلك السنة محاضـرة عامـة، وكـان رئيسا لقسم اللغـة العربيـة فـرأى أن ينهض بتلك المحاضرة، واختـار لها عـرْضا مجمـلا لمعالم الأدب العـربى الكـبرى من الجاهليـة إلى العصـر الحـديث. ومضى نحـو شهـرين من الدراسـة. وإذا الطلاب يسـألـونـه تخصيص محاضرة للأسئلة والمناقشة، وأجابهم إلى مـا طلبوه، وكـانت محـاضرتـه لهم تبدأ فى العـاشرة صبـاحا، فجعـل السـاعـة السابقة لتلك المحاضرة العامة الجـديدة، ودخـل المدرج فى الأسبوع التالى وإذا هو مكتظ بالـطلاب، جاءوا لمنـاقشته وطـرح الأسئلة عليه والاستـماع إلى أجـوبتـه، وقـال لهم لا مانع من الأسئلة فى جـوانب من الأدب لم أعرض لهـا فى محـاضراتى، ومضـوا يسألـونـه فى تلك المحـاضـرة التى اقـترحوهـا وهو يجيب طـوال الأشهر التـالية من السنـة. ولعـل شيئا لم يسعـده فى هذه السـنـة كـما أسعـدتـه هـذه المحاضرة وما وجد فيها من حِرْص طلابه - وبعبارة أدق

حرص أبنائه - على محاورته ومناقشته، وهى بنوة جامعية فكرية رفيعة لا تقل عن بنوة الدم.

وفى شهر ديسمبر من هذه السنة جاءته دعوة من الأكاديمية السويدية باسم ستة هم أعضاء جائزة نوبل للأدب، وفيها يطلبون إليه أن يرشح لتلك الجائزة مَنْ يراه أهلا لاستحقاقها فى عام ١٩٦٩ على أن لا يعلن عن اسمه بأى صورة لصحافة أو غيرها، وعلى أن يصل ترشيحه مبرَّرا قبل أول فبراير. وتردَّد فى الترشيح لها، ولم يلبث أن رأى من واجبه أن يرسل إلى تلك اللجنة اسم كاتب عربى متألق جدير بحصوله عليها، ورشح لها أديبا عربيا مشهورا مع مذكرة مفصلة بأسباب ترشيحه واستحقاقه لها، وظل ينتظر إعلان اللجنة عن مستحق الجائزة لعام ١٩٦٩ مؤملا أن تكون من نصيب مرشحه. وعادة يعلن اسم الفائز بتلك الجائزة منذ شهر أكتوبر حتى ديسمبر، وأعلنت النتيجة، ولم يفز مرشحه. وكرروا فى السنوات التالية هذه الدعوة، وكرر الترشيح مرارا دون جدوى، فأحجم عنه.

وفى رمضان من هذه السنة أدى العمرة، وقد لبس لها

ملابس الإحرام فى منـزله، وركب الـطائرة قـاصدا جـدة، وأحس حـين تجرد من مـلابسه - كـما أحس فى احرامـه للحج - أنه قد تخلص من مطالب الحياة اليومية وترهـاتها الكثيرة وخلص لعبادة ربـه. وبمجرد أن نـزل من الطائـرة بجـدة اتجه إلى البيت العتيق بمكـة، فـدخلهـا مسـاء، وفى الصباح توضـأ وذهب إلى الكعبة ورأى الـطائفين بـالبيت وهم يستقبلون الحجر الأسود مشيرين إليه ومبتـدئين منـه الأشـواط السبعـة، وصمَّـم أن يقبِّله فى طـوافـه كـما قبله رسـول الله ﷺ، وتذكـر قول عمـر - رضى الله عنـه - حين قبَّله: «لولا محمد قبَّلك ما قبَّلتـك». والمسلم لا يقبِّله طلبا لهداية أو مغفرة، وإنما يقبِّله كما قبَّله صاحب الرسـالة العظمى، فكل ما أتاه الـرسول فى منـاسك الحـج والعمرة يأتيه المسلم. يريد أن يقترب أشدَّ القـرب من هَدْيـه ومن ربه، فهو يقبِّل حجر الكعبة فى الطواف كما قبَّله الرسول، وهو يرمى فى الحج الجمرات بالحصيات كما رماها الرسول إعـلانا بـأن عصـر الـوثنيـة وعبـادة الشيـطان والأرواح الشريرة فى الجمرات وفى غيرها قد انتهى إلى غير رجعة، وأن عصرا جديدا أشرق نـوره، هو عصـر الدين الحنيف.

ويطوف صاحبى مع مئات - بل آلاف - قد أُلغيت بينهم فوارق الشرف والسيادة والثروة والجنس والعصبية، ويصوّر ذلك الرسول ﷺ فى خطبة حجة الوداع قائلا: «أيُّها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب». ويلبِّى ويكبِّر طوال طوافه ويقبل الحجر الأسود مبتهجا فرحا. ويذهب - بعد الطواف - إلى بئر زمزم يعبُّ منها وينهل داعيا ربه، ويتجه إلى الصفا والمروة يَسْعَى ويكبِّر ويهلِّل. وينتهى السعى، ولا يترك صاحبى توًّا هذا المتاع الروحى، إذ يعود إلى الطواف، ويطوف عشرات المرات مكبرا مهللا. والناس هناك يطوفون طوال النهار وطوال الليل، فالطواف مستمر فى كل لحظة، وكأنهم - على مدار العام - نهر متحرك لا يتوقف سيره ولا ينقطع تياره. ألوف بعد ألوف يلبُّون ويكبِّرون ويسبِّحون ويستغفرون ويدعون ويتضرَّعون. وطوال العمرة كان يصلى التراويح بعد العشاء فى البيت العتيق وراء إمام كان يتلو فى كل ركعة بعد الفاتحة سورة من سور القرآن الكريم فى الجزءين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين. وكان يقف وراءه بين يدى الله فى بيته المحرَّم

خاشعا ضارعا، راكعا ساجدا، يستمع إلى الذكر الحكيم متأملا مفكرا فى الملكوت الأعلى. وشعر بسعادة لا تقدَّر فى هذه العمرة الهنيئة، إذ أتيح لروحه فيها أن تغتسل فى أضواء ربانية من كل ما علق بها من أدْران الحياة.

وبارح صاحبى مكة فى آخر يوم من أيام رمضان لزيارة القبر الطاهر الشريف للرسول الكريم: النعمة المهداة من ربه لأمته، والعطية الربانية المسداة لأتباعه، ونزل بفندق فى المدينة المنورة وتوضأ واتجه إلى المسجد النبوى، ورآه مكتظا بالزائرين من جميع الشعوب الإسلامية جاءوا يريدون الاغتراف من النور المحمدى وصلى ركعتين، ثم اقترب من المقصورة النورانية وحيًّا وسلَّم حين غمره السَّنا الباهر. وفى الليل أخلد فى الفندق إلى شىء من النوم، وهبَّ من نومه قبيل الفجر يريد أن يحظى بصلاة الصبح فى المسجد النبوىّ، ونظر فى الساعة وكانت الثالثة والنصف إلا خمس دقائق صباحا، فظن خطأ أنها الخامسة والربع، ونِعمْ هذا الخطأ، فقد توضأ وذهب إلى الحرم النبوى لصلاة الصبح، فلم يجده مزدحما، كما كان يظن، وتعجَّب ونظر فى ساعته، فعرف أنه جاء مبكرا

قبل صلاة الصبح بفترة غير قليلة، فاتجه إلى الروضة الشريفة وصلَّى بها ركعتين تحية للمسجد، وحمد الله أن صلَّى ثانية بها لقول الرسول ﷺ: «ما بين قبرى والمنبر روضة من رياض الجنة». ورأى أمامه المحراب الصغير، فصلَّى به ركعتين أخريين، وشعر بسعادة لا حدود لها إذ يضع قدميه فى نفس الأمكنة القدسية الطاهرة التى تشرفت شرفا رفيعا بخطوات الرسول الكريم فيها. وكان معه المصحف الشريف فأخذ يتلو القرآن الكريم فى الروضة قُرْبَى إلى الله وزُلفى، حتى صلاة الظهر. وفى الليلة التالية استيقظ فى الساعة الثالثة صباحا فتوضأ وحمل المصحف واتجه إلى المسجد النورانى، ومضى يتلو فيه القرآن قبل صلاة الصبح وبعده، وكان قد تلا فى الليلة السابقة إلى الظهر نحو نصفه، فأتمه فى الروضة الشريفة، وهى نعمة كبرى أنعم الله بها عليه: أن تتاح له الصلاة فى الروضة النبوية وأن يتلو فيها كتاب الله، ويملأ به جنبات نفسه وقلبه وفؤاده نورا فى أطهر بقاع الدنيا وأزكاها حتى لقد شعر بحق أنه من أسعد السعداء.

٨

وفى صيف سنة ١٩٧٠ ألحت على صاحبى جامعة الكويت الناشئة أن يعاون فى إرساء النظام الجامعى بها، واستجاب إليها إذ لم ير بأسا فى الالتقاء بالشباب فى تلك الجامعة ممن يُعَدّون معقد الرجاء فى الكويت والخليج العربى، وحمل حقائبه إليها فى منتصف شهر سبتمبر، وما إن اقتربت الطائرة من مطار الكويت - وكان الوقت مساء - حتى رأى من نافذة الطائرة اللهب الصاعد من آبار البترول، وهبطت الطائرة فى المطار، ولم يكد يدنو من بابها للنزول حتى أحسّ بما يستقبله من وَقْدة الحر الشديد، وهو عادة يكون خانقا هناك فى شهر سبتمبر لتشبع الجو بالرطوبة. أما فى الشتاء فيكون جو الكويت شبيها بجو القاهرة فى اعتدال حرارته. وما إن تجوَّل فى الكويت حتى

راعه تطورها الحضارى السريع، فقد كانت قرية صغيرة تتألف من بيوت متواضعة، وسرعان ما أصبحت مدينة تتكاثر فيها العمارات ذات الطوابق العديدة والفنادق الكبرى الفخمة، كما تتكاثر فيها شوارع واسعة تمتد طويلا حتى تغوص فى رمال الصحراء. ولم تكن تتوفر فى الكويت آبار للمياه العذبة، وكانوا ينتظرون من شتاء إلى شتاء ليجمعوا مياه الأمطار فى آبار حفروها لهذه الغاية، وكانت بعض القوارب تحمل المياه العذبة من البصرة فى العراق، وتوزعها فى القرب على المنازل. وكل ذلك انتهى الآن وزال، وحل محله تقطير مياه الخليج المالحة ووصولها إلى المنازل بالطرق الحديثة إذ أُعدَّت لها سيارات تحملها إلى فناطيس فوق سطوحها، وفيها توزَّع فى مواسير على الأدوار والشقق.

ولاحظ حينذاك أن الحياة القديمة فى الكويت ترافق دائما الحياة الحديثة جنبا إلى جنب، فالسيِّدة تتزيىَّ دائما بالنِّقاب، وتتسربل بالملاءة، وابنتها تلبس الفساتين والملابس الأوربية ولا تنتقب، والأم تلبس العباءة، والفتاة تلبس الجونلَّة أو التنوّرة، ويلبس الرجال جلابيب بيضاء

فضفاضة، ويـزين العقال رءوسهم، ولكـل إمارة ودولـة فى الجزيرة عقال ذو هيئة خاصة يميـزها عن عقـال شقيقاتهـا القـريبة والبعيـدة. وهو تمسـك حميد بـالتقاليـد وبشخصية الإمارة أو الدولة، ومن واجب الأمة أن تظل تتمسك بغير قليـل من تقاليـدها وصـلا لحاضـرها بمـاضيها واستمـرارا لـذاتيتها. وبـالأمس القـريب كـان الأجـداد فى الكـويت يصيـدون اللؤلؤ فى الخليـج، وتحملهم سفنهـم فى المحـيط الهندى إلى إفريقيا الشرقية والهند وأندونيسيا للتجارة، كما تحملهم الإبل فى الصحراء وفيافيها الفسيحة، واليوم تـرى الآباء والأبناء يركبون السيـارات الفارهـة من كل شكـل وكل لون، فقد بدل النفط ودخوله الكبيرة حياتهم. وتكتظ الكويت بالحوانيت، وهى تمتلىء بكل ما ينتجـه الغرب من معلّبـات تحوى كـل صنوف الـطعام والحلوى، كـما تمتـلىء حوانيت الثياب بكل ما ينتجه الغرب والشـرق البعيد من اليابان وغير اليابان من أنواع الأقمشة، وكثير منهـا يشبه معارض مستمرة. ويقبل أبناء الكـويت على التعليم فى نهم شديد، مما جعل مدارس البنين والبنات تتكاثر فيها كـثرة مفرطة. وقد أقام بهـا أساتـذة الجامعـات المصريـة جامعـة

متكاملة على أحدث طراز، ففيها جميع الكليات العلمية والإنسانية، والفتيات فيها لا يختلطن بالشباب، فلكل من الجنسين كليته الخاصة، وتقبل الفتيات على التعليم الجامعى فى شغف شديد، وبالمثل يقبل الشباب، وإذا جاء الفتيات إلى كلياتهن لبسْن الملابس العصرية، وكثيرات منهن إذا نزلن فى المساء لشراء بعض أغراضهن يلبسن ملابس الأمهات وخاصة العباءة.

وحل موسم المحاضرات فى جامعة الكويت، واختار لمحاضرته موضوع «الصوفية والجهاد» وفيها تحدَّث عن بطلان الفكرة الشائعة التى يزعم أصحابها أن الصوفية كانوا عالة على المجتمع الإسلامى يعيشون على فتات الموائد والحكومات دون أن يبذلوا أى جهد فى كسب أقواتهم، وهى فكرة مخطئة، وأشد منها خطأ الفكرة التى تتردد عنهم والتى طالما لاكها أصحابها، وهى أنهم لم يكونوا يسهمون فى واجبات المجتمع ومسئولياته. وقد نقض الفكرتين جميعا مستدلا ببراهين ساطعة أنهم كانوا دائما يتقدمون الصفوف فى جهاد أعداء الدين، وأنهم أدَّوا دورا كبيرا فى جهاد الصليبيين والتتار، وتغلغلوا فى ديار

الأخيرين وبين عشائرهم فلم يكد يمضى نصف قرن على غزوهم لبغداد حتى دخلوا فى الدين الحنيف. وأوضح صاحبى أن للصوفية دورا عظيما فى نشر الإسلام لا بين التتار فحسب، بل أيضا فى الهند وأندونيسيا وشرقى آسيا وفى أواسط إفريقيا وشرقيها وغربيها. وأعجب العجب أنهم لم يكونوا يعرفون لغات هذه البلدان. ومع ذلك استطاعوا أن يرفعوا جميع العقبات والأسوار التى كانت تفصل بين لسانهم العربى وألسنة هذه الشعوب.

وفى صيف سنة ١٩٧٢ زار لندن ورأى متاحفها الكثيرة وشاهد حديقة «هايدبارك» واستمع فيها إلى خطيب إفريقى يهاجم العنصرية مهاجمة حادة. وزار بلدة شكسبير القريبة من لندن، وشاهد بها منزله وإحدى مسرحياته. وزار إسكتلنده، وتغلغل فى أقصى الشمال منها ليتملى بمشاهد البحيرات والطبيعة بها، ومرَّ ببحيرة «لوخ نيس» ويزعم الأسكتلنديون أنه كان بها كائن بحرى هو «نيس» الذى سميت باسمه وأنه كان يفتك بكل من ينزل بها، وعلى إحدى حوافها أو شواطئها شاهد نُصْبًا صغيرا نُقش عليه اسم وتاريخ أول ضحايا هذا الكائن

الأسطورى الخرافى. ولعل فى ذلك ما يدل - من بعض الوجوه - على أن الإيمان ببعض الخرافات ليس خاصا بأمة شرقية أو عربية دون أمة ولا بأمة غربية دون أمة، بل هو عملة دولية، لكل أمة منه حظ أو حظوظ مختلفة.

وفى السنة التالية حزن صاحبى لوفاة والدته حزنا عميقا، إذ أحسَّ كأن حائطا فى حياته انقض انقضاضا، فقد غابت عنه الأم وتوارت، وتوارى معها عنه ما ظلت تمنحه - طوال حياته - من المودة والشفقة والحنان، وكانت حازمة منتهى الحزم فى تربية أبنائها، تعطف عليهم هذا العطف الحانى الرقيق الذى يكون بين الأمهات والأبناء، ومع ذلك تأخذهم بغير قليل من الشدة فى التربية، محاولة بكل ما استطاعت أن تدفعهم إلى الجد فى التعلم وأن تملأ نفوسهم ثقة وطموحا. وإنه ليذكر كم شجعته على التعلم وكم حفزته فيه على المثابرة، وكلما قطع مرحلة فيه هلَّلت له مبتهجة، وظلت تكلؤه برعايتها فى الكبر كما كانت ترعاه فى الصغر. وغريب أمر الأمهات والآباء، فمهما علت السن بأبنائهم يشعرون كأنما لا يزالون معهم فى مدارج الصبا، وكل ما حدث أنهم أصبحوا أبناء، أو

أطفالا، كبارا، وكأن الرجولة واكتمالها لا يغيران من الابن شيئا، إنه طفلهم أو ابنهم سواء كان صبيا فى المهد أو غلاما أخضر العود أو شابا مشتد الساعد أو كهلا مرجوَّ النفع، ودائما لا يغيض فى نفوس الأبوين لابنهم - على مر السنين - معين البر والرحمة والعطف والمحبة الصافية. ويلقاهم الأبناء - إلا فى الندرة - بنفس هذه العواطف والمشاعر، مبتغين إلى مودتهم ومحبتهم الوسائل، محاولين - بكل ما يملكون - أن يدفعوا عنهم كل ما قد يسبب لهم شيئا من الأذى، حتى إذا أدرك الموت الأم أو الأب شعر الابن بحزن ممض وجَزِع أشد الجزع. وكان الموت قد أدرك والده قبل والدته بسبع سنوات، هى نفس الفارق بينهما فى السن، واشتد جزعه إذ شعر أن الواحة الوارفة التى كان يفزع إليها من حين إلى حين ناشدا فيها الراحة والطمأنينة والكلمات الطيبة المؤنسة كلما حزبه - أو دهاه - أمر قد اختفت من دنياه بكل ظلالها وأزهارها ومياهها، وكان لا يلم بها حتى تصفو له الحياة ويفارق سماءها ما تناثر فيها من سحب داكنة، وتعود مشرقة مضيئة. وغريب أمر الأبناء حين يفقدون الأبوين فإنهم

مهما كبروا سنا يشعرون كأنهم أصبحوا أيتاما، وهو يُتم يصيب الكبير كما يصيب الصغير إذ جميعا يفقدون إلى الأبد العطاء الدافق من البر والحنان والمحبة التى لا تماثلها محبة.

وكانت مصر قد ظلت ست سنوات طوالا تتجرَّع مرارة النكسة التى حدثت فى يونية سنة ١٩٦٧ وما وافى اليوم السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ حتى قطعت الإذاعة المصرية إرسالها معلنة أن اشتباكات وقعت بين الجيش المصرى والجيش الإسرائيلى، وتوالت البلاغات بعبور الجيش المصرى قناة السويس وانهيار خط «بارليف» فى ساعات معدودة، وتوالت ضربات الطيران المصرى ضربات قاصمة، وأخذت الصحف المصرية والعربية تنشر صور الأسرى الإسرائيليين وهم يفترشون الأرض وجماعات منهم تسير وأيديها فوق رءوسها ذلا وخنوعا. وولول الإسرائيليون وناحوا، واستغاثوا بالولايات المتحدة، وصرخوا، فأمدَّتهم بجسر من الطيارات والأسلحة. وقضى مجلس الأمن بوقف الحرب، وكان ذلك نصرا مؤزرا لمصر ومجدا لجيشها الباسل استعادت به كرامتها الحربية وكرامة الأمة العربية.

وزار في شهر يولية مدينتي مدريد وباريس زيارة سريعة، وقد صمم أن يرى في الأخيرة الأماكن والمواضع التي تردد ذكرها في كتابات الأدباء المصريين المثقفين بالثقافة الفرنسية من مثل متحف اللوفر والقسم الفرعوني المصري به وحي مونمارتر والحي اللاتيني وغابة بولونيا، ولشوقي فيها قصيدة بديعة. وتمتع ليلة برؤية استعراضات راقصة في مسرح «الفولي برجير» وزار كلية الآداب ورأى بها تمثال فيكتور هيجو الأديب الفرنسي المشهور صاحب ديوان أساطير القرون، ويُظَنّ أن هذا الديوان كان مما ألهم شوقي نظم فرعونياته الرائعة.

وعاد إلى القاهرة وإلى كليته يدرس لطلابها بعض عصور الأدب العربي، وجاءته دعوة من وزارة الإعلام والثقافة المغربية للاشتراك في المهرجان الذي سيعقد بالرباط لابن زيدون احتفالا بذكراه. وقبل الدعوة واختار لكلمته في المهرجان: موضوع الإيقاع الموسيقي في شعر ابن زيدون. وظل في مدينة الرباط أسبوعا، وكان من أروع ما اتفق له فيها أن ذهب مبكرا لصلاة الجمعة في مسجد الرباط الكبير، وإذا هو لا يجد فقيها يقرأ قبل الصلاة ما تيسر من سورة

الكهف على نحو ما نصنع فى مصر، إنما يجد عريفا، ومعه طائفة من الغلمان والفتيان يقرءون - قراءة جماعية - آيات الجهاد للمشركين والكفار فى آخر سورة الأنفال وأول سورة التوبة، وهى آيات تدلع الحمية فى أتباع الدين الحنيف لنزال أعداء الله ورسوله ودينه وسحقهم سحقا لا يبقى منهم باقية. وما إن استمع صاحبى إلى هذه الآيات الكريمة - وهى تتلى تلاوة جماعية تضرم الحماسة الحربية فى فؤاد كل مسلم كى يشهر سيفه ضد أعداء دينه ولا يغمده أبدا - حتى عرف أنها كانت السلاح الأكبر فى مقاومة الفرنسيين والتنكيل بجنودهم إلى أن فرُّوا من المملكة المغربية لا يلوون. وتمنى صاحبى لو أن جميع البلاد العربية حاكت صنيع المغرب فى صلاة الجمعة، فقرأت فى مساجدها هذه الآيات الحربية الكريمة لتدلع فى نفوس أبنائها جذوة الحمية الدينية للنضال عن أوطانها ومنازلة أعدائها منازلة ضارية. ومن أكبر أخطائنا أننا ننسى عِداء الاستعمار لنا وعِداءنا له وأنه إنما كان حلقة وتتمة للحروب الصليبية، ولما اضطر للانسحاب من أراضينا دقّ إسفين اليهود فى فلسطين لا حُبًّا فى اليهود ولكن كرها للمسلمين والإسلام، وإن من أسوأ ما تُمْنَى به أمة أن تسالم

عدوها وتطمئنّ إليه، بحيث تتيح له الفرصة كي تلدغها عقاربه لدغة أو لدغات، وقد يفضى ذلك إلى أن يتسلّط على اقتصادها، أو يسلط عليها الذئاب الغادرة الشرسة.

وفى أوائل شهر يناير لسنة ١٩٧٦ رشح ستة من أعضاء مجمع اللغة العربية صاحبى زميلا مجمعيا دائما، وأقر ترشيحهم أعضاء المجمع، وعادة يقام للعضو الجديد حفل استقبال يتحدث فيه أحد أعضاء المجمع القدامى عن سيرته العلمية وما أداه للعربية من خدمات كفلت له هذا الترشيح. وأسعد صاحبى أن يطرى زميله - الذى قدمه - أباه قائلا: «إنه شيخ من شيوخ العلم فى ذلك الزمان الخصيب يزينه الوقار وتحفه التقوى». ويشهد صاحبى أنه ما نال شيئا فى دنياه إلا بفضل رضا والديه عليه. ومضى يختلف إلى جلسات المجمع الأسبوعية وما فيها من حوار علمى، كما مضى يساهم فى خمس من لجانه: ثلاث منها لغوية هى لجان المعجم الكبير، والأصول، والألفاظ والأساليب، واثنتان علميتان هما لجنتا الفيزيقا والرياضة. وشغل فى اللجان اللغوية خاصة بوضع كثير من المذكرات والمقترحات، وكان أهم ما شغله فى

السنوات الأولى بالمجمع محاولته وضع مشروع لتيسير النحو وتذليل صعابه للناشئة.

وفى شهر أبريل من سنة ١٩٧٨ جاء صاحبى خطاب من رئيس مجمع اللغة العربية الأردنى يذكر فيه أن مجمع الأردن قرر منحه عضوية شرف فيه «تقديرًا لما قدَّمه للغة العربية وثقافتها ولتاريخ العرب وحضارتهم من خدمات جليلة». ورد عليه شاكرا له ولزملائه من أعضاء المجمع الأردنى الأجلاء هذا التقدير، ومرحبا بتلك الزمالة العلمية الكريمة، راجيا أن يستطيع الوفاء بحقوقها عليه.

وفى سبتمبر من سنة ١٩٧٩ قرر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منح صاحبى جائزة الدولة التقديرية للآداب عرفانا بما قدَّم للعربية من أعمال تتصل بأدبها فى مختلف عصوره وأقاليمه، وبالدراسات اللغوية والبحوث البلاغية والنقدية. وكتبت بعض الصحف مقالات عن نشاطه العلمى. وأخرجت مجلة الثقافة عنه عددا خاصا، ووالى رئيس تحريرها الدكتور عبد العزيز الدسوقى فى طائفة من أعدادها التالية عَرْضَ دراسة تحليلية نقدية لأعماله.

وفى مؤتمر المجمع اللغوى لعام ١٩٨٠ رأى المجمع أن

يحيى سنة قديمة له فى مؤتمراته، هى أن يحاضر أحد أعضائه فى موضوع أدبى عام يهم جمهور المثقفين، واختار المجمع صاحبى لتلك المهمة، فرأى أن يكون موضوع محاضرته: «لغة المسرح بين العامية والفصحى» وألقاها فى الجمعية الجغرافية، وشهدها جمع غفير، وقد صوَّر فيها كيف أن يعقوب صنوع نقل فى القرن الماضى صورة التمثيل المسرحى الغربى إلى اللغة العامية، كما صوَّر مزاوجة فرح أنطون فى العقد الثانى من هذا القرن بين الفصحى والعامية فى مسرحيته: «مصر الجديدة ومصر القديمة» مع محاولته النفوذ إلى لغة ثالثة وسطى بين هاتين اللغتين. ثم أفاض فى محاولة توفيق الحكيم إحداث لغة ثالثة بين العامية والفصحى للحوار جميعه فى مسرحيتيه «الصفقة» و «الورطة». ولاحظ صاحبى أنه استبقى فى المسرحيتين بعض كلمات واختزالات عامية مصرية مثل «أيوه» و «إيه؟». وقال إن بقاء مثل ذلك فى اللغة المسرحية الثالثة للحوار المسرحى يقوم حائلا بينها وبين أن يطرد استعمالها لغة للمسرح فى الوطن العربى جميعه.

وفى شهر يناير سنة ١٩٨٣ فوجئ صاحبى بنشر الصحف لنبأ حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى

لسنة ١٤٠٣ للهجرة. وفى أول شهر مارس حضر حفلا فى مدينة الرياض أقامته الأمانة العامة لتلك الجائزة، ورعاه ملك السعودية فهد بن عبد العزيز تكريما له ولمن نالوا الجائزة فى فروعها الأخرى معه، وتسلمها صاحبى منه هى وميداليتها وبراءتها. وتلا الأمين العام للجائزة البراءة وما تضمنت من تقدير له ولأعماله. وألقى صاحبى كلمة نوَّه فيها بالقيمة الأدبية للجائزة وبالملك فيصل المقترنة باسمه وخدماته للإسلام والمسلمين ولقضايا العرب والعروبة، ونشرت صحف السعودية مقالات عن أعماله وبحوثه. وكان من أهم ما أثر فى نفسه حينئذ مقال نُشر فى ملحق الرياض الأسبوعى لتلميذ وفىٍّ من تلاميذه المصريين - هو الأستاذ الأديب «الناقد» ماهر قنديل الذى لم يلتق به منذ تخرجه فى قسمه لأوائل الستينيات - حلَّل فيه سيرته وشخصيته وما عمل فيه من مؤثرات ونشاطه الأدبى والعلمى تحليلا دقيقا قيما.

٩

في أغسطس من صيف هذا العـام رافق صاحبي رحلة لبعض أسـاتذة وطلبـة الآداب في جامعـة القاهـرة لـزيـارة إسبـانيـا. وما إن وضع قدمه في الطائرة المتجهة إليها حتى أخذ يرتسم في خياله فتح طارق بن زياد وموسى بن نصير لها في أواخر القرن الهجري الأول المقابل للقرن السابع الميلادي بجند لا يزيدون عن ثلاثين ألفا إلا قليلا وقد استطاعا أن يرفعا علم الإسلام والعروبة على جميع بقاعها حتى خليج بسكاي وجبال البرينيه في الشمال الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، واستحال الشطر الأكبر من الجزيرة عربيا في لغته وأدبه إسلاميا في دينه وروحه في سرعة مذهلة. وما إن أعلنت الطائرة عن نزولها في مدريد - وكان يسميها العرب مجريط - حتى خفق قلب صاحبي، إذ تذكر إنشاء العرب لها،

وهى إحدى مدن كثيرة أنشأوها بإسبانيا، فقد أنشأوا بها مدينة طريف فى الجنوب بمجرد وضع أقدامهم على شواطئها، وأنشأوا بجوارها مدينة جبل طارق ومدينة الجزيرة الخضراء، وأنشأوا ثغر المريَّة على البحر المتوسط فى الشرق وبطليوس بقرب المحيط فى الغرب، وأنشأوا فى الوسط مع مدريد مدينتى سالم ووادى الحجارة، وفى ذلك كله دليل واضح على أن العرب أمة متحضرة تبنى ولا تهدم. وبمجرد أن أنشئوا مدريد أخذت تتسع وتحفّ بها الأشجار والزروع. ونزل بها وبات فى أحد فنادقها.وفى اليوم التالى زار القصر الملكى، وهو يقوم فى نفس المكان الذى كان يقيم به الحاكم العربى بمدريد قديما، وتكتظ غرفه الكثيرة بكنوز من التحف النفيسة. وتجوَّل فى متحف البوردو، وشاهد فيه لوحات جويه البديعة، وفى المساء حضر حفل مصارعة الثيران لمدة ثلاث ساعات شاهد فيها مصرع ستة من الثيران، وكان كل ثور منها يدخل الحلبة المتسعة هائجا، ويلقاه فارس بقد ممشوق وثوب برَّاق مطرز بخيوط القصب والذهب، وما يزال يصوِّب إليه سهاما حتى إذا كلَّت قواه وخارت عزيمته نزل للقائه محركا فى يديه خِرقة حمراء لإثارته والاحتماء بها منه، والثور يهجم مرارا، وفى كل

مرة يرميه بسهم إلى أن يرميه بالسهم القاتل الأخير. ولا تعرف بلد فى أوربا هذه المصارعة للثيران. ومن المؤكد أن الإسبان ورثوا حفلات هذه المصارعة عن العرب فى الأندلس إذ تلقانا نصوص أندلسية تدل - بوضوح - على أن هذه الحفلات كانت تعقد بغرناطة فى حلبات معدَّة لها، إذ كان يطلق فى الحلبة ثور وترسل عليه كلاب متوحشة لا تزال تصارعه وتنهش فى جسده ذات اليمين وذات الشمال حتى تخور قواه وحينئذ يخرج إليه فارس ممتطيا جواده وبيده رمح مايزال يسدده إليه حتى تكون الطعنة القاضية، على نحو ما يحدث اليوم فى مصارعة الثيران بمدريد وغيرها من المدن الأندلسية.

وفى اليوم التالى زار صاحبى طُلَيْطلة: أقرب المدن الأندلسية إلى مدريد، وهى تقوم على تلال مرتفعة تجعل منها حصنا منيعا لا يمكن اختراقه، وحولها كثير من البوابات والأسوار والقناطر، وبها كنيسة فخمة كانت جامعا كبيرا قبل سقوطها فى حجر ألفونس السادس سنة ١٠٨٥ للميلاد، وهى أول مدينة أندلسية استولى عليها نصارى الشمال، وكان استيلاؤهم عليها نذير شؤم لضياع الأندلس فيما بعد، ولهذا

الاستيلاء قصة فى منتهى الغرابة، فإن فردناند ملك قشتالة وليون والبرتغال قسم ملكه - بعد موته - بين أبناء ثلاثة له، وخص شَانْجُهْ بقشتالة وألفونس بليون وغَرْسية بالبرتغال، وتحارب سانشوا مع أخويه بعد موت أبيه واستولى على ما بيدهما وفرَّ منه ألفونس ولجأ إلى المأمون بن ذى النون أمير طليطلة فى عصر أمراء الطوائف، فرحَّب به وأنزله مع من جاء معه من أنصاره فى قصر بجوار قصره! وظل يسبغ عليه من كرمه. ودلَّ بذلك على أنه طائش قصير النظر، فبدلا من أن يرمى بعدوه فى غياهب السجون أتاح له أن يعرف كل شىء عن طليطلة هذا الحصن الأشم، ويعرف مداخلها ومخارجها. وبعد نحو تسعة أشهر قتل أخوه سانشوا واستدعاه حزبه من طليطلة، وولوه ملكا على قشتالة وليون، فتلقب بلقب ألفونس السادس، ووضع نصب عينيه تحقيق حلمه بالاستيلاء على طليطلة: الحصن العربى الشامخ وتحقق له الحلم سنة ١٠٨٥ كما ذكرنا، وكان ذلك أول ضربة قاصمة وُجِّهت إلى العرب فى الأندلس، وتنادى بعدها نصارى الشمال: استرِدُّوا الأندلس من أيدى العرب، واكفهرت الأجواء، ولولا أن استغاث الأندلسيون بيوسف بن تاشفين

ملك المرابطين فى المغرب، فدخل الأندلس بجيش جرار وهزم ألفونس ونصارى الشمال فى موقعة الزلاقة هزيمة ساحقة لضاعت الأندلس فى القرن الحادى عشر الميلادى أو بعده بقليل بغباء ابن ذى النون وشدة غفلته.

وفى اليوم الثالث زار الإسكوريال على بعد ٦٠ كيلو مترا من مدريد، ومبناه يضم مكتبة ضخمة وقصرا وبهوا كبيرا، وبالمكتبة صور لأعلام الفكر اليونانى والرومانى والعربى، وبها مخطوطات قديمة كثيرة: يونانية ولاتينية وعربية. وبالقصر غرف تضم توابيت الملوك الإسبان والملكات، وعلى كلٍ تابوت اسم صاحبه. والبهو صالة واسعة، بها لوحة كبيرة تمثل الإسبان يديرون معركة مع العرب على أبواب قصر الحمراء بغرناطة حين الاستيلاء عليه، وقد استولوا عليه سلما لا حربا، كما صنع الرسام خطأ. وفى نفس هذا اليوم زار وادى الشهداء فى الحرب الإسبانية الأهلية التى انتصر فيها فرانكو سنة ١٩٣٩ وقد خلد ذكراهم بإقامة صليب ضخم بأعلى جبل فى مدريد، ونُحتت فى بطن الجبل كاتدرائية ضخمة يتقدمها بهو أو فناء فسيح طويل، دُفن على جانبيه ثلاثمائة صُرعوا فى الحرب رمزا لجميع صرعاها. وفى صدر هذا الفناء

دُفن فرانكو، ولو طلب أن يُدْفَن مع ملوك إسبانيا فى الإسكوريال لنفَّذوا رغبته، ولكنه آثر أن يُدْفَن مع من حملوا السلاح معه، ومما يذكره الإسبان له أنه أبى بعد أن أصبحت مقاليد الحكم بيده سنة ١٩٣٩ أن ينزل فى القصر الملكى وسكن فى ضاحية من ضواحى مدريد، ويقال إنه أبى أن يُصْنَع له أى تمثال فى حياته أو أن يضاف إلى اسمه أى عمل من الأعمال تخليدا لاسمه. وكان كثير من حكام العرب يأبون أن تخلَّد أسماؤهم على الإنشاءات فى أيام حكمهم، ومن أروع الأمثلة فى ذلك صلاح الدين الأيوبى فإنه لم يُسَمِّ باسمه أى مدرسة أو أى مارستان أو أى رباط لمتصوفة من الرباطات والمارستانات والمدارس الكثيرة التى أنشأها بالقاهرة ومدن الشام. ويذكر المؤرخون أنه لما توفى لم يوجد فى خزائنه سوى دينار واحد وسبعة وأربعين درهما، ولم يخلِّف دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا مزرعة أو ضيعة.

وزار قرطبة، وقد أسس فيها عبد الرحمن الداخل الدولة الأموية الأندلسية سنة ١٣٨ وظلت تلك الدولة تحكم الأندلس نحو ثلاثة قرون، شادت فيها حضارة عربية باهرة كانت منارة لأوربا فى أواخر عصورها الوسطى لتسير على

هداها إلى حضارتها الحديثة علميا وفلسفيا وأدبيا وفكريا، وكانت تُعَدّ فى القرن العاشر الميلادى أعظم المدن الأوربية حضارة بما فيها من علم وأدب وفلسفة ومعمار وهندسة، وكان حكام ليون وبرشلونة وقشتالة فى الشمال المسيحى يفزعون إلى قرطبة كلما احتاجوا إلى مهندس أو موسيقار أو طبيب، وقد لجأت طوطا ملكة نبارّة بابنها سانكو إلى عبد الرحمن الناصر الأموى ليعالجه لها أطباؤه من سمنة مفرطة، وعالجوه وبرئ من سمنته. وأهم أثر عربى لايزال قائما فى قرطبة الجامع الأموى وقد مرّت عمارته بأربعة مراحل، كانت أولاها فى عهد عبد الرحمن الداخل، إذ أنشأ فيه اثنى عشر رواقا موازية للمحراب، وكانت الثانية فى عهد عبد الرحمن الأوسط إذ زاد فيه ثمانية أروقة فى اتجاه نهر الوادى الكبير المخترق لقرطبة، وكانت الثالثة فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر إذ زادا فيه اثنى عشر رواقا، وأقاما فيه محرابا بديعا ومقصورة كبيرة ومئذنة فى أقصى الصحن شماليّه، جعلاها على هيئة برج ضخم. وتمت المرحلة الرابعة فى أيام المنصور بن أبى عامر إذ زاد فى الجامع زيادة كبيرة بحيث أصبح يمثل مع صَحْنه نحو خمسة أفدنة. والجامع غابة ضخمة

من الأعمدة والأقواس والعقود وعلى أحد الأعمدة مكتوب: ﴿ومَنْ يتوكَّل على الله فهو حسبه﴾ ولابد أن كانت على الأعمدة آيات قرآنية كثيرة أزالها القشتاليون، ولا يزال به ثلاثة أعمدة متميزة، على أحدها اسم محمد ﷺ، وعلى الثانى صورة عصا موسى وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة «غراب نوح خلقة ربانية». ولا يزال المحراب قائما بنقوشه وزخارفه وما ازدان به فى أعلاه وجوانبه من آيات قرآنية، وعلى يمينه المنبر الضخم الذى ظل يعمل فى صناعته ونقشه ثمانية من الصناع المهرة لمدة سبع سنوات، وفى مواجهته منصة قائمة على أعمدة كانت تحمل مصحفا من مصاحف سيدنا عثمان السبعة التى وزعها على الأمصار الإسلامية ولايزال شذاه يفوح هناك كما يقول شوقى فى سينيَّته الأندلسية. والجامع من أروع الأعمال المعمارية التى صاغها البشر، وبدلا من أن يحافظ عليه القشتاليون حين استولوا على قرطبة ويصونوه عن أى تغيير فيه وضعوا على مئذنته ناقوسا كنسيا ضخما، وبنى به فرناند وإيزابيلا كاتدرائية صغيرة، وبنيت فى جانب منه كنيسة، وفى القرن السادس عشر الميلادى بنيت به كاتدرائية كبيرة. وكل ذلك شوَّه - ويشوه - صورة هذا

الجامع العظيم الذى كان جامعة كبرى تغص بالشيوخ والطلاب، وتُشَدُّ إليه الرحال من أطراف الغرب المسيحى: من الممالك المسيحية الإسبانية الشمالية ومن ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا.

وتجوَّل فى الأنحاء المجاورة للجامع، ولاتزال بعض الدور فيها تحتفظ بالطابع العربى، ودخل إحداها فرأى بها الصحن المعروف فى منازل القاهرة القديمة وفى دمشق. وبه نافورة صغيرة وعلى جوانبه أُصُص الأزهار الفخارية مرصوصة. والشوارع حارات وأزقة ضيقة، وكأنما قرطبة القديمة لم تكن تختلف فى مبانيها عن مبانى المدينتين الشرقيتين الكبيرتين: القاهرة ودمشق. وبجوار الجامع قصور لبنى أمية مسوَّرة يسكنها القسس وبها حدائق، وما أحراها أن تتحوَّل متحفا. وشاهد صاحبى بقرطبة أنصابا تذكارية لابن رشد وابن حزم، ولابن زيدون وصاحبته ولادة وقد تشابكت يداهما للتحية والسلام وعلى نصبهما نُقش هذان البيتان المشهوران لحفصة الرَّكونية:

أغار عليك من عينى ومنى ومنك ومن زمانك والمكانِ
ولو أنى خبَأْتُك فى عيونى إلى يوم القيامة ما كفانى

وحُفر اسم ولادة تحت البيتين، ومعروف أنها كانت شاعرة ولها فى الحب كثير من الأبيات الغزلية الطريفة، ويعد ابن زيدون أهم شعراء الأندلس الوجدانيين الغزلين.

واتجه بعد قرطبة إلى إشبيلية على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير قرب مصبه فى خليج عميق يدخل إليه مدّ المحيط وجزره وتتأثر به مياهه، وقد تخلت لها قرطبة عن زعامتها لعهد حكامها من بنى عباد زمن أمراء الطوائف وأصبحت أعظم المدن الأندلسية، بل لقد تبعتها قرطبة ومضى حكامها يعيشون معيشة بذخ، محيطين أنفسهم بكوكبة ضخمة من الشعراء يتغنون بمديحهم، وأحال آخرهم المعتمد بن عباد قصره إلى ما يشبه مسرحا كبيرا للغناء والخمر والقصف، وبلغ من ترفه أن زوجته اعتماد الرُّمَيْكية أم أبنائه - وكان يشغف بها شغفا شديدا - رأت بإشبيلية ذات يوم نساء البادية يبعن اللبن فى القِرَبِ وهن رافعات ثيابهن عن سيقانهن لسيرهن فى الطين، فقالت له: أشتهى أن أفعل أنا وجوارىّ مثل هؤلاء النساء، فأمر بإحضار حمل من العنبر والمسك والكافور وماء الورد، وأحالها جميعا طينا بأحد أركان القصر، ثم أمر بقرب وحبال من الحرير قُدِّمت إليها هى

وجواريها، فأخذن يَخُضْنَ فى ذلك الطين. وهو سفه ما بعده سفه. وبينما كان يعيش هذه المعيشة المترفة غاية الترف التى يعتصرها اعتصارا من عرق رعيته كان يخاصم جيرانه من العرب وينازلهم فى معارك ضارية، بينما كان يركع خانعا على قدميه لألفونس السادس ملك قشتالة ويؤدِّى إليه الجزية سنويا صاغرا، وكان على وشك أن يبتلع إمارته كما ابتلع إمارة طليطلة لولا أن تداركه وتدارك الأندلس يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وقد خلعه ونفاه إلى المغرب جزاء وفاقا لما اقترف فى حق إمارته وحقوق الأندلس العربية. وتجوَّل فى قصره. وكان قد أصبح مقرا لحكام إشبيلية المرابطين ثم الموحدين، ورأى الغرف والقاعات والأبهاء والجدران مزدانة بالنقوش وآيات الذكر الحكيم وبأبيات من أشعار الشعراء فى مديح الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور صاحب موقعة الأَرَك المشهورة مع القشتاليين وقد محق جيشهم وكاد لا يبقى فيه بقيَّة، وهو الذى أمر ببناء مسجد إشبيلية الكبير ومئذنته الضخمة «الخيرالدا» وهى أعظم مئذنة فى العالم الإسلامى، إذ كان عرضها يبلغ ستين ذراعا، وكان الفارس يستطيع أن يصعد إلى

قمتها على فرسه، أما ارتفاعها فكان يبلغ مائتين وأربعين ذراعا، وفى أعلاها برج يبلغ ارتفاعه نحو ثمانية أذرع، وكأنما يشدُّ الفكر نحو السماء للتأمل فى ملكوتها الأعلى. وحين استولى الإسبان على إشبيلية أحالوا جامعها إلى كاتدرائية ضخمة، ولم يبق منه الآن إلا بعض جدران، أما المئذنة فأحالوها إلى بُرْجٍ لنواقيس الكاتدرائية. ودخلها، ورأى فيها تابوت كولمبوس مكتشف أمريكا، وكان مدفونا بكوبا فنُقل إلى إسبانيا بعد انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية. ويحمل التابوت أربعة، يرتدى كل منهم ثوبا يرمز إلى إحدى الولايات الإسبانية الأربعة التى تحملت تكاليف نقل جثمانه من كوبا، وبفضله احتلَّ الإسبان أمريكا الجنوبية، ونحو ٩٠ فى المائة من السيَّاح الذين يفدون على إسبانيا سنويا من أهلها، وجميعهم يتكلمون الإسبانية.

وقصد إلى غرناطة ونزل فى فندق مسمًّى فندق واشنطن إيرفنج، وهو كاتب أمريكى بهره قصر الحمراء فأقام بأحد أجنحته فترة كتب فيها قصصه التى نشرها باسم قصص الحمراء. وكان الفندق قديما قصرا لأحد وزراء بنى الأحمر حكام غرناطة أو أحد رجالاتهم إذ تتردَّد على حوائطه

شارتهم: «ولا غالب إلا الله» فى أُطُرٍ ونقوش بديعة. وفى المساء شاهد صاحبى حفلا لرقص إلفلامنكو الشعبى بإسبانيا، ولاحظ فيه تأثيرات عربية واضحة، إذ غالبا ما يكون رقصا فرديا ترقص فيه سيدة على إيقاعات الموسيقى، والراقصون والراقصات فيه يضربون الأرض - فى أثناء رقصهم وحركاتهم - بأحذيتهم ضربا عنيفا، وكأنهم يحاكون ضرب الخيل الأرض بحوافرها الصلبة السريعة. ولفتته رقصة لجوقة من الفتيات يتلفعن فيها بالشال، ووجوههن نصف محجبة، ودائما تحتشم الراقصات فى ملابسهن فلا صدور ولا سيقان عارية. ويتميز الغناء فى أثناء الرقص بنوع من التطريب. وتتضح فى كل ذلك التأثيرات العربية. ويوجد فى الشعر الأندلسى وصف راقصين وراقصات يتثنين ويتمايلن ميل الأغصان متلاعبات بعقول الرجال. وكانوا يضمون فى الرقص أحيانا أقدامهم إلى رءوسهم فى تقوسات بديعة مما جعل شاعرا يصف راقصة بأنها ضمت قدميها إلى رأسها حتى أصبحت تشبه أدق الشبه سيفاضُمَّ مقبضه إلى نهاية طرفه فى هيئة بارعة.

وفى صباح اليوم التالى زار قصر الحمراء، وهو على ربوة

مسطحة واسعة عالية، والأسوار والأبراج تحيط به من كل جانب للدفاع عنه: وله سور خارجى عليه باب ضخم يحمل برجين كبيرين للحراسة، وقد كتب فوق عقده: «أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف عام ٧٤٩ هـ. وسمى القصر باسم الحمراء لأن اللون الأحمر يكسو جدرانه وحوائطه، ولا يزال يكسوها إلى اليوم ودخل صاحبى ساحة القصر الأمامية وكان بها مبان أزالها فرناند وإيزابيلا حين استسلمت لهما غرناطة، وعنَّ للملك كارلوس بعدهما أن يبنى قصرا فى مواجهة الحمراء، فهدم له كثيرا من الأبهاء والحمامات وحجرات النساء والحاشية مما يدل بوضوح على تأخر الإسبان حضاريا فى تلك الأزمنة، وتشهد نفس الشهادة قصور حكام العرب فى طليطلة وجيَّان والمرية ومرسية وبلنسية، فقد أحالها الإسبان أطلالا.

ومضى صاحبى إلى مدخل القصر حيث فناء الريحان المكشوف المستطيل وبركته وما على جانبيها من أشجار ريحان، خلفها غرف متعددة، وقد نقشت وراءها على الحيطان كلمات السعادة والصحة والحمد لله والآية القرآنية: ﴿نصر

من الله وفَتْحٌ قريب وبشر المؤمنين﴾ ويلقانا اسم أبى الحجاج يوسف منشىء القصر. ومقابل العقد الأوسط من عقود فناء الريحان برج قمارش ويدخل الزائر إلى حجرات القصر الفخمة، ومن أروعها قاعة السفراء وعلى عقد مدخلها أبيات تحيى بلسانها السلطان يوسف أبا الحجاج منها:

تحييـك منهـا حـين تصبـح أو تمسى
ثـغـور المنى والـيمـن والسعـد والأُنْس

وفى هذه القاعة سلمت إيزابيلا لكولمبوس الأموال التى يحتاجها فى رحلته لكشف أمريكا، ومن الغريب أن الـذى قاد سفينته إليها ملاحـون من العرب وأسماؤهم لا تذكـر مـع أنهم أصحـاب الاكتشـاف الحقيقيـون لتلك القـارة الجديرون بكل تمجيد، مثلهم فى ذلك مثل ابن ماجد الملاح العُمانى مع فاسكو دى جاما، فـإن هذا المـلاح العربى هـو الـذى قاد سفينتـه إلى الهند، وأتـاح له اكتشـاف الطريق إليها، ومع ذلك لا ينوه بفضله أحد فى إسبانيـا فضلا عن أوربا.

ومقابل قـاعة السفـراء أو قاعـة العرش بَهْـو الأسود بأعمدته الرخامية، ويتوسطه حوض كبير من الـرخام بـه

نافورة يحملها اثنا عشر أسدا، تقف فى بركة قليلة الغور والماء يتدفق من أفواهها، وعلى النافورة وحوائط البهو نُقشت أبيات رائعة من قصيدة يائية لابن زمرك شاعر سلطان غرناطة الغنى بالله منشىء البهو ونافورته، وفيها يقول عن النافورة:

وراقصةٍ فى البَهْو طوعَ عِنانها تراجع ألحان القِيان الغَوانيا
إذا ما علتْ فى الجوِّ ثم تحدَّرتْ تحلِّى بمرفضِّ الجُمان النواحيا
تشابَه جارٍ للعيون بجامدٍ فلم أدْرِ أيًّا منهما كان جاريا

والمياه تندفع إلى الحوض من قنواتٍ تجرى بها فى جميع غرف القصر وأبهائه ملطفة للجو. ويكتظ البهو بالقيشانى الملون فى أسفل حوائطه كما يكتظ هو وجميع غرف القصر بتزاويق وترصيعات زخرفية لا حصر لها من أشجار وأغصان وأزهار وطيور ونجوم فى ألوان وهيئات شتى. وانعطف إلى حجرة خاصة بصلاة الأمير بها محراب للإمام. وتتصل بالبهو قاعة نقشت فى سقفها صورة لعشرة رجال معممين، وهم إما رمز لقضاة غرناطة وإما رمز لفقهائها. ورأى حمام القصر، وبه قسم يدل على استخدام البخار للتدليك، وبه مواسير للمياه الباردة والحارة.

وتحوَّل من القصر إلى الحديقة الملحقة به، وتسمًّى جنة العريف، وهى قطع خلابة من الرياض تجرى المياه بها فى قنوات على حِفافها نافورات تتدفق المياه منها فى هيئة أقواس بديعة، وحول القنوات - وتتدلَّى على بعض أجزائها - نباتات وأزهار وورود رائعة، كأنما اقتُطعت من الفردوس بأريجها ومناظرها الفاتنة. وإن وصف قصر الحمراء الخلاب مع جنته لتعجز الألفاظ عن بيانه، بل إنه ليعزُّ على أى لغة أن تصف روعته وفتنته وسحره الأخاذ. وإنه ليقف شاهدا شامخا على مدى ما بلغته الحضارة العربية فى الأندلس من رقى وازدهار يفوقان كل وصف وبيان. ولو أن المتنبى الذى بهره شِعْب بَوّان بإيران رأى جنة العريف لنسى الشِّعب وظل يدبِّج القصائد تلو القصائد فى هذه الجنة البالغة الروعة. وإذا كان قد كدَّر عليه إحساسه بجمال شعب بَوّان أنه لم يـر للعرب ولغتهم أثرا فيما حوله بإيران فإن كل عربى اليوم حين يزور غرناطة ويرى الحمراء وجنة العريف ليمتلىء أسى لخروج العرب من الأندلس أصحاب تلك الحضارة الباهرة وما تصور من نهضة فنية وصناعية وعمرانية، وكانت تشدُّ

أزْرَ تلك النهضة نهضة لا تقل عنها روعة فى الطب والصيدلة والرياضة والفلك والفلسفة والشعر والغناء والموسيقى مما دفع الإسبان فى الشمال وأمم الغرب: إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا من القرن الحادى عشر الميلادى إلى القرن السادس عشر إلى العكوف على تلك النهضة وكتبها وترجمتها ونقلها إلى اللاتينية وإلى لغاتهم متخذين منها مصابيح تهديم فى مسيرتهم إلى حضارتهم الغربية الحديثة.

وفى عام ١٩٨٤ رأى صاحبى أن يقضى فترة من الصيف فى ألمانيا وسويسرا، فبارح القاهرة إلى فرانكفورت بألمانيا، وكان من طريف ما شاهده فيها منزل أديب ألمانيا المشهور جوته المتوفى سنة ١٨٣٢ وكان البيت قد تهدم فى الحرب العالمية الأخيرة، وأعيد بناؤه بأوضاعه القديمة بكل ما كان يحتويه من أثاث ورياش وصور لأصدقائه، وكأنما لم يصبه أى هدم ولا تخريب ولا دمار، ويدل البيت بطوابقه الثلاثة وما فيها من رياش وتحف على ثراء أسرته، ويقال إن جده كان عمدة فرانكفورت وكان أبوه محاميا وكانت أمه من سلالة طبقة الأشراف،

وَقالت المرشدة إن أباه كان يأخذه بتربية صارمة، فرض عليه فيها أن يدرس اليونانية واللاتينية والفرنسية والإنجليزية، وكان يراقبه فى سهره بالخارج ليلا، ولاحظ أنه يتأخر فى سهره أحيانا إلى هزيع من الليل، فهدم جزءا من حائط مكتبته المشرف على السلم، وأقام فيه نافذة ليراقبه ليلا، وكان يظل ساهرا وراءها ليعرف متى يعود، ودفعت الأمَّ محبتُها لابنها وخشيتها عليه من تأخره أن تفتح له بابا خلفيا يصعد منه إلى غرفته حتى لا يراه أبوه حين عودته. وكان الأب حين يشعر بتأخره فى العودة بإحدى الليالى يظل ساهرا وراء النافذة، وكلما مضى شطر من الليل ازداد غضبه حدة، حتى إذا طال عليه الانتظار صَعد إلى غرفته فوجده نائما بها فيعجب من ذلك ويطمئن باله. وقالت المرشدة إن جدته أهدته - فى صباه - مسرحا صغيراً، ومعه مجموعة من العرايس والدمى فكان يقصّ عنها بعض القصص الخيالية مما أعدَّه - فيما بعد - ليكون قصاصا مبدعا. وقالت إنه أحبَّ - وهو شاب - سيدة متزوجة، وكان يكثر من التردد عليها هى وزوجها، وشغفته حبا وهام بها فؤاده. وتصادف أن شابا ألمانيا أحبَّ

فتاة حبًّا طاغيًا ولم يتح له زواجها فانتحر تخلصا من آلام حبه وعذابه، فكتب جوته قصته المشهورة «آلام ڤرتر» أفرغ فيها آلامه فى حبه. وحين نشر القصة انتشر معها الانتحار بين الشباب فى ألمانيا وأوربا، واتخذ ذلك شكل وباء بين المراهقين من المحبين المملوءين صبابة وعشقا ويأسا، وسُمِّى العام الذى اجتاحه هذا الوباء عام الانتحار لكثرة العشاق المنتحرين فيه. وتجول صاحبى مع المرشدة فى بيت جوته، ورأى مكتبة أبيه، وكانت تضم - ولا تزال - ١٩٠٠ كتاب، ورأى حجرة والدته الخاصة التى ولد بها ورأى مطبخها وأوانيه كما رأى غرفات البيت وردهاته وما به من زهريات ومناضد وتحف وأيضا ما به من صور لكبار معاصريه من المفكرين والفلاسفة والكتاب والشعراء أمثال شلر. ويحق لفرانكفورت أن تفخر باستطاعتها إعادة منزل شاعرها الكبير جوته بجميع أوضاعه القديمة، وإنه ليعجّ يوميا بزواره.

وزار بعض المدن الصغيرة بالقرب من فرانكفورت، ولاحظ أن شوارع السوق لا تدخلها سيارات حفاظا على الأطفال والمشاة من النساء والرجال، وهو نظام كان

سائدا فى المدن العربية قبل العصر الحديث ولا تزال منه بقية فى بعض تلك المدن مثل دمشق وسوقها المشهور باسم الحميدية، وهو سوق مسقوف. وكذلك كانت الأسواق مسقوفة فى المدن المصرية الكبيرة وتخلَّت عنها سواء من حيث السقوف أو من حيث قَصْر السوق على المارَّة وحدهم، وكأنما أخذت المدن الألمانية أو بعضها - على الأقل - بنظام الأسواق العربية القديمة، وما كان أحرانا أن لا نهجره ولا ننساه. ورأى فى زياراته السريعة بإحدى تلك المدن ساحة واسعة ليستريح بها الجمهور على مقاعد مرصوصة، وخلف المقاعد مسرح صيفى مكشوف، تشاهد على خشبته بالتناوب طوال الأسبوع ثلاثة برامج: برنامج للأطفال فى الرابعة مساء تقدِّم لهم فيه قصص تمثيلية مثل علاء الدين واللمبة السحرية. وبرنامج ثان للشباب بين السابعة والنصف والتاسعة مساء وفيه تقدم موسيقى حديثة وكونشرتو وموسيقى الجاز. وبرنامج ثالث للكبار فى نفس موعد البرنامج السابق، إذ لكل منهما أيام معينة من الأسبوع، وفى البرنامج الأخير تقدم موسيقى كلاسيكية. وهى خدمات تقدم للجمهور مجانا فى جميع

البلدان الألمانية. وحبذا لو أقمنا مثل هذه المسارح الصيفية المجانية المنظمة في أيام الأسبوع بالتناوب لا في الأحياء الكبيرة بالقاهرة والإسكندرية فحسب، بل أيضا في عواصم المحافظات ومدن المراكز، وخاصة الكبيرة ولا أشك في أننا لو صنعنا ذلك نمينا الخيال القصصي في كثرة من أطفالنا، وأتحنا لشبابنا وشيوخنا تمضية بعض أمسيات ممتعة للتسلية والترفيه عنهم خلال أيام الصيف.

وزار قلعة بمدينة هيدلبرج ورأى كثرة من الناس يؤمونها للفرجة عليها وصعد مثلهم في قطار صغير مكون من عربتين، مع أن الطريق قصير ويمكن الصعود فيه على الأقدام. وتجوّل - مع المتفرجين - في القلعة، ورأى بها مكتبة حديثة تباع فيها الكتب ومحلا لبيع الحلوى وبعض غُرَف أثرية ومتحفا يضم بعض أسلحة قديمة. وعجب صاحبي إذ رأى على سطحها أناسا كثيرين جاءوا للفرجة عليها، مع قلة ما يستحق الرؤية والمشاهدة. وما أحرانا أن نصنع نفس الصنيع بقلعة صلاح الدين ففيها فعلا متحف لأسلحة حربية قديمة، وفيها آثار تفوق ما بقلعة هيدلبرج بمراحل كثيرة.

وشاهد فى بافاريا قصر ليندرهوف المشهور الذى أقامه ملكها لودفيج فى القرن الماضى وكان معجبا إعجابا شديدا بلويس الرابع عشر، وزار باريس، وأعجب بقصر فرساى وحدائقه البديعة ورأى أن يجعل من قصره قصر فرساى فى وسط أوربا، وشاده على ربوة عالية، ووضع فى مدخله تمثالا للويس الرابع عشر. وتموج طوابقه وغرفه وردهاته وأركانه بطنافس لاحصر لها، وزخرفة حوائطه مطبوعة بالطابع الفرنسى وعلى سقف حجرة العرش صورة الشمس وعلى سقف غرفة نومه صورة مركب أبولو إله الشعر والموسيقى وعلى سقف إحدى الردهات صورة مولد فينوس. وفى إحدى حدائقه بركة بها تمثال لمجموعة نبتون إله البحر، وهو يقذف بالمياه من أفواه خيل متأهبة للمسير. وبحديقة ثانية تمثال لفينوس وآخر لأدونيس رب الشباب والجمال وبركة مياه بها تمثال لكيوبيد وهو يسدِّد قوسه وسهامه إلى أفئدة المحبين الواهين. وكان لودفيج معجبا بفن الموريسكيين بقايا العرب فى الأندلس فشاد لقصره ملحقا بأسلوبهم فى العمارة والزخرفة واستخدام الزجاج الملون فى السقوف

والنوافذ، وألحق بالقصر مغارة سماها مغارة ڤينوس. وجعل منها بحيرة صغيرة اتخذ فيها لنفسه زورقا يسع اثنين على هيئة صدفة بحرية، ورسم على حائط المغارة مشهد الفصل الأول من أوبرا ڤاجنر: «تانهويسزر» وتُرَى فيه ڤينوس إلهة الحب مضطجعة وعشيقها «تانهويزر» راقد ورأسه فى حجرها وعرائس الماء الفاتنات يَسْتحممن غير بعيد والحور ورَبَّات الرشاقة يتهيأن للرقص. وما أحرانا أن نحيل بعض قصور الأسرة العلوية - مثل قصر الأمير محمد على وقصر المنتزه إلى متاحف، ولكل متحف تذاكره تلقاء الفرجة عليه ودليله بالعربية - وباللغات الأجنبية من أجل السياح - فإن ذلك من شأنه أن يُدِرَّ على مصر عائدا غير قليل.

وتحوَّل من ألمانيا إلى سويسرا عن طريق بحيرة كونستانزا، ومرَّ بلوتسرن وبحيرتها، واتجه لرؤية قمَّة «يونجفراويوخ» أعلى قمة فى أوربا، ونزل بقربها فى فندق بقرية إنترلاكن. وفى اليوم التالى ذكر لصاحب الفندق أنه ذاهب لمشاهدتها، فنصحه أن يشترى لها نظارة شمس حتى لا يؤذى عينيه وهج الثلج فوقها، فاشتراها، واشترى

تـذكرة الـرحلة إليها، وركب مـع كثيرين قـطارا صغـيرا لمشاهدتها وسار بهم فى طريق صاعـد، وفى منتصف الطريق نزلوا منه وركبوا قطارا صغيرا ثانيا كـانت تحفّ به جبـال شامخة ذات اليمين وذات الشمال يتـوّجها الثلج، ويـترامى على سفوحها، والسحب أمامها تتحرك على صفحة السماء، كـأنما تـريد أن تسبق القـطار إلى القمـة المنشـودة ولكن هيهـات، فأجنحتهـا أقصـر من أن تصـل إليهـا، وتـذعن للهبـوط دونها. وزحف القـطار حتى بلغ القمـة. ونـزل صاحبى وهاله الضوء المتوهج المنبعث من الثلوج فـوضع النظارة سريعا على عينيه، ورأى حشدا يتزاحم على كهف للتزحلق، وما كاد يدخل فيه حتى خرج مسـرعا، إذ كـان أشبه بثلاجـة شديـدة الزمهـرير. وأخـذ يمتع عينيـه بمنظر الثلوج وهى تتراءى فى شُطَب وهيآت خلّابة متنوعة طولا وعـرضا، وسَنـاها يكـاد يخطف الأبصـار. وعاد بعـد هـذه الرحلة الممتعة فى جوف السماء إلى فندقه، وكـان فى ملتقى بحيرتين، وسويسرا تكتظ بالبحيرات وفى اليوم التالى أخذ طريقه إلى مدينة مونترو على بحيرة جنيف، وهى تستـدير حول خليج بديع، تنطرح عليه جبال شاهقة كأنما تريد أن

تغسل أقدامها فى مياهه. وربما كان خير وصف لسويسرا أنها بحيرات وجبال وغابات ما يزال السائح متنقلا بينها متمتعا بمناظرها الساحرة.

وانتهى المطاف بصاحبى فى سويسرا إلى عاصمتها «بيرن» فنزل بأحد فنادقها، وفى الصباح اشترك فى فوج سياحى لرؤية المدينة وأخذت المرشدة المرافقة تذكر لهم ما يمرون به من معالم المدينة ودور وزاراتها وسفاراتها وبينها السفارة المصرية. ومر الفوج فى أحد الشوارع بمنزل فقالت إنه يسمى «بيت الأشباح» وهو مهجور، ولا يجرؤ أحد على السكنى فيه خوفا من الأشباح التى تقطنه، وهى خرافة كخرافة الكائن البحرى الذى يعتقد أهل اسكتلندة أنه رابض فى بحيرة «لوخ نيس» وأن أحدا لا يغامر وينزل فيها إلا فتك به. والخرافتان دليلان واضحان على أن الأمم مهما ارتقت علميا وعقليا لا تزال الخرافات تجد لها مأوى فى أذهانها. وكما يتضح ذلك فى الأمم يتضح فى الأفراد، فقد يكون الشخص من أعلم معاصريه بقوانين العلوم الطبيعية، ومع ذلك يؤمن بالأشباح وبقوى غيبية إن تراءت له لا يستطيع دفعا لها ولا خلاصًا من شرها. وهى خيالات

كامنة فى نفوس الناس منذ الأزمان البعيدة: أزمان طفولة الإنسانية بل أيضا منذ أزمان طفولتهم وصباهم المبكر، وينبغى أن يتخلص منها الإنسان - متى شبَّ - ويطرحها بعيدا عن باله وفكره، حتى لا تفسد عليه حياته، ويعيش أسير خرافات وأوهام.

وبينما كان مستغرقاً فى هذه الفكرة وما يتصل بها من الإيمان بالخرافات والأشباح الخفية غير المرئية إذا المرشدة تدعو الفوج للنزول كى يشاهد حديقة بديعة التنسيق مكتظة بالورود والرياحين الأرجة التى تبعث البهجة فى الناظرين. وقبيل الساعة الثانية عشرة ظهرا توقفت بالفوج عند مشهد ساعة كبيرة مثبتة فى برج، على بناء شاهق، وهى تحفة بديعة، وفى أعلاها مهرج يدق جرسين قبل أن تدق الساعة معلنة الثانية عشرة بثلاث دقائق، ويصيح توا تمثال ديك على اليسار محركا أحد جناحيه، ويقابله تمثال أسد مايزال يهز رأسه، وتمثال عمدة مايزال يحرك عصاه، وتدور مجموعة من الدببة فى استعراض بديع. وفى الساعة الثانية عشرة تماما تدق الساعة ويصيح الديك ويحرك أحد جناحيه كأنه يهمّ بالطيران، وتحت هذه الساعة الزمنية الكبيرة ساعة فلكية لبيان اليوم والشهر.

وقالت المرشدة مفتخرة إن هذه الساعة صنعها فلاح سويسرى سنة ١٥٣٠ للميلاد. ولو عرفت التاريخ الصحيح لصنع الساعة لشهدت بعبقرية صانعها العربى الذى اخترعها بذكائه الخارق فى القرن الثامن للميلاد لعصر هارون الرشيد، وكان يتبادل السفارات والهدايا مع شارلمان منشىء الدولة الألمانية الأولى، وحين أهدى إليه الرشيد ساعة عربية أصابه ذهول ودهشة وظنت حاشيته أنها من صنع عفريت من الجن وأنه هو الذى يدفعها إلى الدوران. وكانت أوربا حينئذ يغمرها ظلام جهل مطبق، وكان شارلمان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وهو رمز كبير لما كانت أوربا غارقة فيه من الجهل والتخلف الثقافى بالقياس إلى العرب الذين كانوا ينعمون حينئذ بازدهار حضارى وثقافى وعلمى. وأخذت أشعة من هذا الازدهار تخترق إلى أوربا البحارَ والجبال والسهول عن طريق الأندلس وصقلية حتى انزاح عنها ما كانت فيه من جهل وأمية وتخلف بفضل ما ترجمْته عن العرب من ثقافة وعلوم وفلسفة مما اتخذت منه مشاعل أضاءت لها الطريق إلى حضارتها الحديثة.

وفى شهر مارس من السنة التالية ١٩٨٥ أقامت كلية

التربية بدمياط باسم جامعة المنصورة مؤتمرا لتكريم صاحبى، وفيه تحدَّث من جاءوا للاشتراك فيه من زملائه وأصدقائه وتلامذته عن وجوه نشاطه فى التأليف والدراسات الأدبية. وكان مما أثر فى نفسه أن فوجئ بأستاذ للأدب العربى بجامعة بكين - وهو من تلاميذه الصينيين القدماء - يحضر المؤتمر، ويلقى فيه كلمة قال فيها: إنه ترجم لأستاذه، «كتاب الأدب العربى المعاصر فى مصر» إلى الصينية، ويدرسه مع طلابه بجامعة بكين، وقدَّم له نسخة صينية من الكتاب قائلا: إنه ذكرى أيام عزيزة على نفسه، أيام الدراسة على يديه بجامعة القاهرة.

وفى صيف هذه السنة رافق رحلة لأساتذة وطلبة كلية الآداب إلى إستانبول: البلدة العزيزة على نفوس المسلمين فى جميع البقاع، إذ ظلت تتزعم عالمهم نحو أربعمائة عام، وكان شعبها التركى العثمانى قد هاجر فى القرن الثالث عشر الميلادى من آسيا الوسطى إلى آسية الصغرى تحف به مواكب الصوفية، وقد ظلوا يحثون حكّامه بقوة على منازلة بيزنطة وزحزحتها من آسية الصغرى طوال نحو قرن حتى دانت للترك بلدانها جميعا. وفى سنة ١٤٥٣ للميلاد اقتحم السلطان

محمد الفاتح أسوار بيزنطة (إستانبول) وفى ركابه شيخه الصوفى: آق شمس الدين واستولى عليها. واستطاع خلفاؤه من السلاطين العثمانيين الاستيلاء على شطر كبير من البلقان، وظل نزال الروس والغرب لتلك الدولة الإسلامية محتدما فى القرن الماضى. واشتركت مع ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى لهذا القرن، ودارت عليها الدوائر، فحاول الغرب أن يقتلعها من أوربا، ومزَّق ديارها فى آسية الصغرى، وسرعان ما تصدَّى مصطفى كمال (أتاتورك) ورفاقه لهذا العدوان الباغى وكوَّنوا فرقا تركية باسلة نازلت جيوش الاحتلال نزالا ضاريا أرغمها على الجلاء عن آسية الصغرى وعن إستانبول وشريط ضيق وراءها. ورأى هو ورفاقه أن لا محيص من إلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية. وأحال أتاتورك تركيا جمهورية عصرية مصطبغة بصبغة مدنية، وتركت الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية والزى التركى إلى الزى الأوربى.

ونزل صاحبى إستانبول مع رفاقه وبات فى أحد الفنادق. وفى الصباح رأى أن يتجوَّل فى شوارع المدينة للفرجة ورؤية محلاتها، ولاحظ روعة فى نسيج السجاجيد، وكانت قد انتقلت

صناعتها قديما من إيران إلى إستانبول. وأهلها مهرة فى صنع الأزياء الجلدية للرجال والنساء، ولهم تفنن بديع فى صناعة الحلى والفضيات وفى تعاليق يسمونها «صرمات» من الشاموا والقطيفة والحرير منسوجة بخيوط فضية وذهبية، وحين تعلق على حائط صالون تصبح فتنة للناظرين.

ويحسّ نزيل إستانبول بأن الشعب التركى يحافظ بقوة على شخصيته القومية، فجميع اللافتات على رءوس الشوارع وواجهات الدكاكين مكتوبة باللغة التركية، وبالمثل البرامج فى الإذاعة والتليفزيون جميعها بالتركية، لا فى البرامج التركية الخالصة فحسب، بل أيضا فى البرامج الأجنبية، فإنها تترجم جميعا إلى التركية مع مطابقة العبارة للأصل مطابقة دقيقة، وبالمثل الأفلام السينمائية الأجنبية، فكل شىء لابد أن يكون تركيا، محافظة على الروح القومية. وهى ناحية تحمد للترك ولكل البلاد الأوربية التى تحتفظ مثلها فى الإذاعات وعرض الأفلام بشخصيتها اللغوية.

ولاحظ أن المرأة التركية تنهض بكل ما ينهض به الرجل من الأعمال، ومعروف أنها سبقت المرأة العربية إلى التحرر منذ نشوء جمعية تركية الفتاة سنة ١٩٠٧ وظلت تحاول أن

تشق طريقها إلى التحرر، حتى إذا كانت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ وما بعدها اقتحمت ميادين العمل لتسدَّ الفراغ الذى أحدثته غيبة الرجال فى ميادين تلك الحرب، واتصل هذا الاقتحام بعد انتهائها فى أثناء مقاومة الفرق التركية الضارية للجيوش المحتلة لبلادهم، وتطوع كثيرات منهن للإسهام فى تلك المقاومة من أمثال البطلة «قرا فاطمة» والكاتبة خالدة أديب التى أسهمت مثلها فى معارك التحرير وصوَّرتها تصويرا رائعا فى روايتها: قميص النار». حتى إذا أعلنت الجمهورية نالت المرأة التركية كل ما كانت تحلم به من تحرر، وأخذت سريعا تكيِّف حياتها على طريقة حياة المرأة الأوربية، بحيث لم تعد تختلف عنها فى أى حقل من حقول العمل ولا فى أى جانب من جوانب الحياة.

وصلَّى الجمعة فى جامع السلطان أحمد، وحين دخله وجده - على سعته - مكتظا بالمصلين من الشباب والشيوخ، ورأى واعظا على مقعد مرتفع مستند على أحد أعمدة الجامع، ومئات من المصلين جالسين إليه يرهفون السمع لموعظته، وكان الحج إلى بيت الله أصبح قاب قوسين أو أدنى، فجعل موعظته عن فريضة الحج ووجوب أدائها على كل مستطيع

ماديا وصحيا، وكان يتخلّل وعظه دائما بقوله: لبيك اللهم لبيك. وشعر بروابط أخوة روحية وثيقة تربط بينه وبين الترك الجالسين بجواره: أخوة الإسلام، وهى أقوى من أخوة العرق والنسب، لأن أخوة النسب والعرق دم وجسد وأخوة الإسلام نفس وروح وأفئدة يهوى بعضها إلى بعض. وأذّن للصلاة، فصلّى جميع من فى المسجد سنة الجمعة: أربع ركعات، واعتلى الخطيب المنبر، وافتتح خطبته الأولى بحمد الله والصلاة على رسوله ومضى فى عظته باللغة التركية، متخللا لها بآى من الذكر الحكيم وببعض أحاديث، حتى إذا فرغ من الخطبة جلس قليلا، ثم وقف يلقى خطبته الثانية، مفتتحا لها بقوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يُصَلُّون على النبى يٰأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلِّموا تسليما﴾ وأضاف إلى تلك الآية آيات أخرى ثم رفع يديه ضارعا إلى ربه داعيا مستغفرا، ودعا معه المصلون، ثم نزل واتجه إلى المحراب، وأمّهم. حتى إذا أتم ركعتى الجمعة، نهض - ونهض معه كل المصلين - لصلاة الظهر أخذا - فيما يبدو بعد - برأى بعض الأئمة أنه إذا تعددت الجوامع والمساجد فى بلدة كان من الخير أن يجمع المصلون بين صلاة الجمعة وصلاة الظهر، لأنه لا يعلم أى

المساجد والجوامع كان له فضل السبق فى البلدة بأداء صلاة الجمعة. وشعر بمسرة غير قليلة ملأت قلبه، وهو يؤدى صلاة الجمعة مع شيوخ إستانبول وشبابها، وقد اتجهوا جميعا - واتجه معهم - بقلوبهم نحو الكعبة وحرمها المكى يريدون أن يحوزوا لأنفسهم شيئا من نوره.

وتزخر إستانبول بجوامع ومساجد لا تكاد تحصى، وقد بنى السلطان محمد فاتحها عشرة مساجد، أهمها جامعه المحمدى الذى شيَّده فى وسط إستانبول، وأقام عليه مئذنتين، وألحق به مدرسة ومكتبة ومستشفى، ووضعت على يمين بابه الرئيسى لوحة نُقش عليها بأحرف من ذهب الحديث النبوى: «لتفتحنّ القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» وقد مضى عليه أكثر من خمسمائة عام، ورُمِّم مرارا، وهو مغلق الآن، وشيد محمد الفاتح مسجدا من الرخام البديع بجوار ضريح أبى أيوب الأنصارى الذى أكرمه الرسول ﷺ بنزوله فى داره لأول هجرته إلى المدينة المنورة، وكان قد استشهد بجوار سورها فى أول هجوم للمسلمين عليها لعهد معاوية مؤسس الدولة الأموية. وبنى الفاتح قبة على ضريحه، وظل تقليدا عند سلاطين الدولة

العثمانيين أن يقلَّدوا فى مقام هذا الشهيد العظيم سيف عثمان من يد شيخ الطريقة المولوية عقب ارتقائهم العرش فى احتفال رسمى. وتبارى السلاطين بعد محمد الفاتح فى بناء الجوامع والمساجد بإستانبول، وأهمهم فى هذا الصنيع سليمان القانونى فى منتصف القرن السادس عشر، وقد بلغت الدولة لزمنه أوج سلطانها ومجدها، وكلَّف مهندسه المعمارى« سنان » إنشاء جامعه العظيم المسمى بالسليمانية، وهو أفخم مساجد إستانبول بما تزدان به أعمدته وجدرانه من الرخام البديع وما يزين محرابه من القاشانى النفيس وما يتوهج به زجاج نوافذه من ألوان يكاد سناها يخطف الأبصار. وشيد المهندس سنان بجانب هذا الجامع العظيم واحدا وثمانين جامعا كبيرا واثنين وخمسين مسجدا صغيرا وخمسا وخمسين مدرسة وسبعة معاهد لدراسة القرآن الكريم غير المستشفيات والمكتبات والكتاتيب. وظل السلاطين - بعد سليمان القانونى - يضيفون إلى جوامعه ومساجده جوامع ومساجد حتى لتكتظ إستانبول بها وبمآذنها الشامخة التى يتعالى عليها التكبير والدعوة إلى الصلاة فى الصباح والمساء، وإنها لتصعد فى السماء شادَّة الفكر إلى تأمل عميق فى الكون، تأمل يشرق

فيه لألاء الجلال الإلهى بكل روعته وعظمته.

وزار متحف أيا صوفيا، وكان كنيسة عتيقة أحالها محمد الفاتح إلى مسجد، وأحاله مصطفى كمال إلى متحف، وكان الفاتح قد أقام فى المسجد مئذنة، وأضيفت إليها ثلاث بعده، ولاتزال المآذن الأربع تتعالى مصعدة فى السماء، ولا تزال النقوش التى كتبت بأحرف يبلغ طولها بضعة أمتار، وقد نقشت بماء الذهب، ينبعث سناها من أعالى الجدران. وتتألق من بينها فى أركان أيا صوفيا أسماء الله جَلَّ جلاله ومحمد ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضوان الله عليهم أجمعين، ولفت صاحبى مُرافق تركى إلى ما على أسفل العمود المقابل لباب أيا صوفيا القديم من علامة محفورة كأنها علامة حافر وقال له: إن هذه العلامة ضربة حافر الفرس الذى دفعه راكبه السلطان محمد الفاتح بكل قوة لاقتحام كنيسة أيا صوفيا عقب اقتحامه لأسوار بيزنطة العتيقة.

وخصَّ يوما بزيارة قصر طوبقبى مسكن السلاطين العثمانيين منذ زمن محمد الفاتح إلى أواسط القرن التاسع عشر، وقد جعله مصطفى كمال متحفا لكل ما كانت تموج به قصور السلاطين العثمانيين وكل ما ملكوه هم ونساؤهم من

تحف ونفائس، وتكتظ بها وتزدحم غرف متعاقبة، وكل غرفة تبهرك بما بها من جواهر ولآلئ ويواقيت ودرر مفردة أو منتظمة فى عقود أو مرصعة على الأوانى والأطقم والنجف أو على بعض المقاعد والفرش. أما كرسى العرش فمن الذهب الخالص، وترصعه مئات من الحجارة الكريمة. وخُصِّصت غرفة للمصحف العثمانى وبعض المخلفات النبوية، وعلى الحيطان زخارف ورسوم بديعة وفى أعلاها استدارت أبيات منقوشة من بردة البوصيرى المشهورة فى مديح الرسول عليه السلام.

وفى يوم ثان شاهد قصر دولما بغشه الذى شيده السلطان عبد المجيد سنة ١٨٤٠ على الضفة الأوربية لمضيق البوسفور مواجها لمنطقة إسكودار على الضفة الآسيوية، وظل ينتقل من روعة إلى روعة منذ أشرف عليه لزيارته، ولفتته بركة أمامه بتماثيلها البديعة وما حولها من أزهار وورود ناضرة. وعلى باب القصر الضخم رأى جنديا تركيا لبس لأمة الحرب، وكأنه على وشك النزال فى معركة حامية الوطيس من معارك الترك فى البلقان، وظنه أول الأمر تمثالا قُدَّ من صخر، إذ لا تهتز منه يد ولا يتغضّن له وجه ولا ترفّ عين ولا يتحرك جفن، ووقف أمامه صاحبى واجما، ومرَّت برهة

قصيرة، وإذا هو يضرب الأرض بقدميه متحركا إلى اليمين، وإذا زميل له مقبل ليحل محله وهو بنفس الهيئة. وكأنما يمثلان عزيمة الشعب التركى وصلابته الصخرية الصلدة التى ظلت لا تقهر قرونا متعاقبة إلى أن تجمعت عليها أوربا الغربية والشرقية، ومع ذلك لاتزال ذراعها ممتدة فى أوربا رمزا إلى بطولتها وقوتها العاتية.

ودخل القصر، بل المتحف الكبير، فكل ما به تحف ونفائس، وهو يموج بالأعمدة الرخامية، ويمشى الزائر فى ممر طويل إلى سلم رخامى يزينه أبسطة بديعة وخشب منقوش، ويفضى منه إلى ردهة واسعة يحف بها «درابزين» أعمدته من الكريستال البهيج، وسجاد الردهة موشىً - كأكثر سجاجيد القصر - بخيوط ذهبية، وبها شمعدانات وزهريات بالغة الروعة، وعلى الأرض جلد دب ضخم أهداه إلى السلطان عبد المجيد نيقولا الثانى قيصر روسيا لعهده. وجميع حيطان القصر وسقوفه تزينها نقوش أغصان وأزهار وحيوانات وطيور شتى. ومن أروع القاعات قاعة السفراء ببابها المزخرف وسقفها المنقوش باللازورد وساعتها الذهبية المرصعة قوائمها بالجواهر وزهرياتها المرصعة باللآلئ.

ولا تقل عنها روعة قاعة العرش بأعمدتها الرخامية ونقوش حيطانها وسقوفها البديعة ونجفتها الضخمة التى أهداها أيضا نيقولا الثانى إلى السلطان عبد المجيد، وهى تحمل سبعمائة وخمسين لمبة، ويقال إنها تزن أربعة أطنان ونصفا. وبالقصر تحف كثيرة أهداها ملوك أوربا إلى السلاطين العثمانيين، وبينها ساعة بديعة أهداها خديو مصر عباس إلى السلطان عبدالحميد. وفى القصر غرف كانت خاصة بالحريم تموج بالطنافس والأرائك المذهبة. ويقال إن الإمبراطورة أوجينى زوجة نابليون الثالث نزلت فى غرفة من هذه الغرف لعهد السلطان عبد العزيز وظلت فيها عشرين يوما ثم انتقلت إلى قصر بيلربيى الذى بناه هذا السلطان مقابلا لقصر دولما بغشه على الضفة الآسيوية ومكثت فيه عشرين يوما أخرى. وفى ركن من أركان دولما بغشه رأى صاحبى الغرفة التى كان ينام بها أتاتورك حين كان يقدم من أنقرة إلى إستانبول وفيها صعدت روحه إلى بارئها فى العاشر من نوفمبر سنة ١٩٣٨ عن سبعة وخمسين عاما، ولاتزال الساعة الموضوعة على منضدة الغرفة تشير إلى لحظة وفاته، وهى التاسعة وخمس دقائق. والقصر بكل ما فيه رمز مجسد لمدينة إستانبول

العريقة ذات التاريخ الحافل المجيد.

وتملّى - مرارا وتكرارا - فى مقامه القصير بإستانبول بمشاهدها الطبيعية الخلابة على مرمرة وجانبى البوسفور، وهى مشاهد تأخذ بمجامع القلوب، ولاحظ أنه على الرغم من تكيف الحياة فى إستانبول على الطريقة الأوربية، لايزال فيها غير قليل من طوابعها القومية بسبب ما لها من تراث غنى عريق، ولفتته قبيل مبارحته لإستانبول مسلّة مصرية فى جانب أحد شوارعها نقلها العثمانيون قديما من مصر إلى عاصمتهم، ولاتزال واقفة أمام الجامع الأزرق الكبير بقامتها الهيفاء، وكأنما تريد أن ترحب - فى خفر واستحياء - بكل مصرى وافد على إستانبول.

وفى السنة التالية: ١٩٨٦ عُيِّن أستاذا متفرغا بآداب جامعة القاهرة. كليته التى تربَّى فيها ناشئا، وحاضر بها طلاب قسم اللغة العربية شابا وكهلا وبعد الكهولة، ولكلية الآداب سحر يأسر قلوب أبنائها، وهو سحر حقيقى إذ يدرس الأساتذة لطلابهم التراث الحضارى الإنسانى بكل لآلئه وجواهره التى تشيع الحكمة فى العقول والبهجة فى النفوس. وإنها لمتعة فريدة، متعة دراسة هذا التراث وما يحتويه من

كنوز الآراء والأفكار وذخائر المشاعر والأحاسيس. وقد ظل يغدو ويروح إلى جانب من هذا التراث فى قسم اللغة العربية، مستغرقا فى دراسة آياته التى أبدعها أفذاذه بمختلف بلدانه على مر الحقب والأزمنة. وقصر نفسه على هذه الدراسة، ومع كل ما نَشر ودوَّن لا يستطيع أن يزعم أنه استقصى استقصاء وافيا دراسة الآثار الأدبية لأى عصر من العصور العربية الماضية ولا لأى إقليم عربى من أقاليم هذه العصور، لأنها أعظم وأكثر من أن يحيط بها إحاطة تامة أىُّ دارس مهما أنفق من السنوات ومهما تكلف من الجهد والمشقة. وإنه لحرىٌّ أن يتوفر لهذا التراث الأدبى العظيم أعداد ضخمة من الدارسين ينفقون أعمارهم فى دراسة روائعه وفرائده التى أنشأها أفذاذه وعباقرته طوال خمسة عشر قرنا. ولا تموج أركان كلية الآداب ومدرجاتها وغرفها بروائع التراث الأدبى العربى وحده فحسب، بل إنها تموج أيضا بروائع التراث الأدبى العالمى الغربى والشرقى من أقدم العصور إلى اليوم، مما يجعلها أشبه بمتحف ضخم، وهو متحف تُرَدُّ فيه الحياة إلى عصور أدبية ماضية بأكملها بكل من كانوا يعيشون فيها من الأدباء والمفكرين والفلاسفة العظام.

واغتبط أى اغتباط حين عاد - فى شيخوخته - إلى هذا المتحف، ليشارك فى دراسة آيات التراث الأدبى العربى الخالدة، التى سيظل العرب - إلى آخر الدهر - يستمدون منها غذاء الأرواح والقلوب والعقول، وأحسَّ كأنما تدفقت من جديد أثارة من دم الشباب الحار فى عروقه التى طالما نبضت به فى بواكير حياتـه الجامعيـة، ودخلت سنة ١٩٨٧ فانتخب عضوا عاملا فى المجمع العلمى المصرى أقدم الهيئات العلمية بمصر إذ تأسس بأخرة من القرن الثامن عشر، وظل منذ هذا التاريخ البعيد ينهض بخدمات جُلَّى للوطن وللمعرفة الإنسانية.

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

* سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

* العصر الجاهلى
الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحة
* العصر الإسلامى
الطبعة العاشرة ٤٦١ صفحة
* العصر العباسى الأول
الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
* العصر العباسى الثانى
الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
* عصر الدول والإمارات (١)
الجزيرة العربية - العراق - إيران
الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة
* عصر الدول والإمارات (٢)
مصر - الشام
الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

* الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة
* الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة
* التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة
* دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة
* شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحة
* الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات
* البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الرابعة ٢٣٢ صفحة
* الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الرابعة ٢٣٦ صفحة
* البحث الأدبى : طبيعته - ومناهجه - أصوله - مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
* الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

* فى النقد الأدبى
الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة
* فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

* البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة
* المدارس النحوية
الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة
* تجديد النحو
الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة
* تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده
الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

* ابن زيدون
الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

● الرثاء

الطبعة الثالثة ١١٢ صفحات

● المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة

● النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

● الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

● الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

● المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثانى - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

● كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحه

● كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

● الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

فى سلسلة اقرأ

● العقاد

الطبعة الرابعة

● البطولة فى الشعر العربى

الطبعة الثانية

● معى (١)

الطبعة الثانية

● الفكاهة فى مصر

الطبعة الثانية

رقم الإيداع	٣٥٠٨ / ١٩٨٨	
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٤٧٤-X	ISBN

٢٦٤ / ٨٧ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)